سلسلة أمراء النصر والتحرير

قصّة شهيد الوعد الصادق

الشهيد خليل جابر [عمّار]

حب ونار

رسمية جابر

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org
شبكة المعارف الإسلامية

حب ونار

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
CULTURAL ISLAMIC AL-MAAREF ASSOCIATION
بيروت.لبنان.حارة حريك.شارع دكاش
تلفاكس: ٠١/٢٧٣٧٦٦
ص.ب: ٢٤/٥٣ - ٢٥/٣٢٧
www.maaref.org Email: info@maaref.org

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

- عنوان المسابقة: شهيد الوعد الصادق
- عنوان القصة: حب ونار
- الكاتب: رسمية جابر
- الرعاية: بلدية الهرمل
- المنظم والناشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

الطبعة الأولى - تموز - ٢٠٠٩م

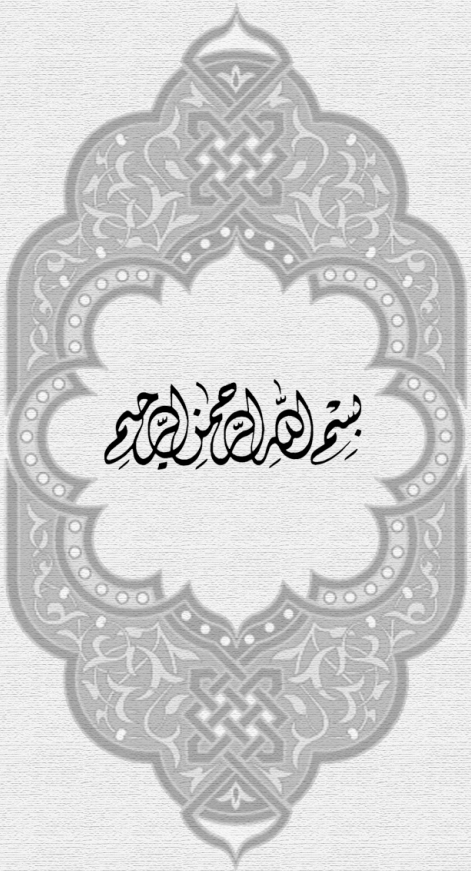
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أخي تلعثم الفجر عند باب الحديقة

عند الوريقة الخجولة.. المستريحة وسط القلب والذاكرة

أخي وداعاً أنت يازهرة الصلاة

ياحبة هذا الفؤاد.. يا سنبلة الوجد الحانية..

يا نخلاً يتعذب في صحراء..

أخي فانهض.. واهمس قليلاً قبيل الوداع..

حدثني.. عن الشباب..عن لفتات العشق الإلهي..

حب ونار

حدثني عن حرية الأسرى التي تقبع خلف القضبان..

حدثني عن النصر الذي صنعته دماء الشهداء الذين قدموا أنفسهم قرابين لله

أخي حدثني عن الوعد الإلهي

عن الوعد الصادق

خليل ومحيبيب

في ليلة من ليالي حزيران الحالمة أطلَّ الربيع بإشراقته الوهاجة يريد أن يحرر قرص الشمس الذهبي من خلف أستار الظلمة الداكنة، لترفرف أهداب الأزهار، وتطلق عبقها في الفضاء،وتزدان الأرض بخضرة تفرش الثرى بسجادة مزركشة، ويتألق الربيع شامخاً بعزّة شبابه الصامدين على تلال الجنوب لا سيّما في تلك البلدة «محيبيب»

إستيقظ خليل في تلك الغرفة الخلفية من منزله،وكان يحمل كتابه بيمينه ويضع الأخرى تحت رأسه، فيستمع تارةً لترنيمة السحر الندي، وتارةً يقرأ في كتابه إستعداداً منه لإمتحان البكالوريا القسم الثاني.

قام ووقف بعزة وشموخ الرجال على شباك غرفته،وراح ينظر في الظلمة إلى الحقول شارد الذهن،فقد كان يشغله التفكير في الإستعداد لإستقبال المواسم، حصاد حقول القمح وقطاف شتول التبغ،ولكن كان يتخلل ذلك التفكير بعض التأوهات على هذه الأيام التي تمضي بروتين ممل، فلا شيء يتغيّر في تلك البلدة وليس هناك من جديد.

حب ونار

كان خليل مستلقياً على الفراش في الغرفة الخلفية من بيته المتواضع، قام ووقف بجسده النحيل على شباك غرفته مجدداً حيث ينتشر بعض الأريج الفواح الذي تختلط فيه رائحة التراب مع رائحة ورق العريش التي تتساقط بغير انتظام، وزقزقة العصافير..

وراح يتأفف: أقبلت هذه الايام التي تزّجنا في متاعب رتيبة، نفس العمل، ونفس الوجوه.. لا شيء يتغير في محيبيب.

غفت عيونه وهو ينفث سخطه على الأيام القادمة وما تحمله من تعب وعناء.

وفي صباح اليوم التالي،الخامس من حزايرن ١٩٩١، كانت الشمس قد شرعت في ارتفاعها فوق الجبال، وخليل ما زال جالساً في غرفته يدرس، وبينما هو كذلك إذ سمع قرعاً لباب الدار الموصد قليلاً ،دُق الباب عدة مرات لكن لم يجب أحد، شرع الطارق بالسعال، إقترب من الباب فلم يسمع في الداخل سوى صدى خربشات، وبلهجةً عالية قدر الإمكان صاح: يا الله!

إلتفتت الحاجة أم هاني والدة خليل نحو الباب، وإذا بشاب في العقد الثالث من العمر يقف خلفه، تفتح له الحاجة وهي تهمّ بالخروج.

- أهلاً تفضل يا ولدي هل من خدمة؟

- لا لا ياخالتي فقط أريد منكِ أن تسلمي هذه الورقة الى خليل

- لا يصح ذلك يا بني تفضل الى البيت فخليل يدرس في الغرفة فوق «وتعني غرفة من طين ترتفع بعض الشيء عن الاخريات» إنتظر

يا ولدي حتى أناديه: «ياخليل تعال يا بني»

– لا لا فأنـا علـى عجلة من أمري،سلميه هـذه الورقة فهو يعرفني جيداً وينتظرها، وشكراً لكِ يا خالتي.

وبسرعة البرق غاب عن نظرها.

حملـت الحاجة الورقة وهــي تحاول معرفة مـا بداخلها ولكنها «لا تعرف القراءة والكتابة»

وكانـت تتمتم: هـذا الجيـل دائماً على عجـل، خيـر اللهم،إجعله خيـراً يارب، مـاذا يكون فيها هـذه الورقة آه ربما بيـن طياتها بعض الدروس التـي تساعده في الامتحان، «روح ربـي يحميك ويعمي عنك اولاد الحـرام وعيون الظالـم، عنك وعن ولدي «، ربي من عالي سماه يهديك ويحميك يا إبن بطني يا خليل وينجح مقصدك، الله من عنده يوفقـك بالامتحان، ثم تنادي: يا خليـل تعال خذ هذه الورقة لقد جاء رجل وإعطاني إياها.

– من هو هذا الرجل يا أمي، ولماذا لم يدخل؟ ومن يكون؟!

– يقول أنك تعرفه جيداً، ولم ينتظر حتى أناديك.. كأنه يشبه أهل ميس لا أعرفه.

أخذ خليل منها الورقة وشكرها.. وقبّل يديها فسألته الحاجة:

– ماذا فيها؟

– لاأعرف إنتظري يا أمي حتى أفتحها.

نظر فـي الورقة، إرتجف قلبه بين ضلوعـه قليلاً، سرت في جلده قشعريرة،أخفاها وقال لها:

– نعم أنه صديقي في الثانوية،ثم سكت دون أن ينطق بكلمة.

عادت الحاجة الى عملها وتركته ساحباً جسده كقطعة قماش إلى داخـل الغرفة، أعاد فتح الورقة وقرأهـا من جديد لا يوجد فيها سوى جملة واحدة:

«عليك مغادرة القرية بأسرع وقت ممكن لأنك في خطر.»

نظر يمنةً وشمالاً بعينيه العسليتن، مسح جبينه ووضع الكتاب من يده، وهو لا يصدق «هل حقاً أنا في خطر؟!!»

أمسك عود الكبريت وأحرق الورقة فكادت تحترق أصابعه.

أطـلَّ برأسه نحو الدار، وقد استوت شمس الظهيرة وأرسلت لهيب حرارتهـا فـوق صحراء القلـب المسكون بالصمت، أغلـق الباب على نفسه وجلس يصلي تارةً، وتارةً آخرى يحملق في كتبه.

وضعـت أمه طعام الغداء وراحـت تنتظره لم يـأتِ لتناول الطعام معهم على غير عادته فنادته:

– يا خليل، يا ولدي تعال وتناول الغداء، لكن لم تسمع منه جواباً، فنظرت الى زوجها الجالس على الأرض ليأكل وقالت له:

– ياحاج أبـو هاني، خليل لم يتناول الطعام ولم يخرج من غرفته، «الله يأخذ بيده عنده دروس كتير»، والظروف التي مررنا بها بالأشهر الماضية كانت صعبة ولم يتمكن خليل من فتح كتاب.

وضعـت يدها على ركبتهـا وقالت الله أعلم، لا يريـد إضاعة وقته بالأكل،لأقوم وأناوله صينية الطعام. فيجيبها زوجها:

– أتركيه يدرس عندما يجوع يطلب الطعام، لم يعد طفلاً صغيراً، كفى تغنيجاً له أصبح رجلاً .فترد عليه الحاجة:

– ماذا دهاك؟ الولد ما زال صغيراً يخاف من الامتحان.

حلّ الليل وخليل لا يدري ماذا يفعل وهو بين قائم وقاعد، لايدري بماذا يفكر وبماذا يبدأ،والدنيا لا تسعه من شدة ما يشعر به من ضيق، بدأت الحرارة تخنقه، أحسّ كأنه يختنق وصدره يطبق على ضلوعه، فتح النافذة، ولكن حرارة الجو في الخارج كانت أشد من حرارة جو الغرفة غير المحتملة ولم يكن السبب الحقيقي لذلك الضغط الحرارة فقط، بل موضوع الرسالة.

طوال الليل لم يغمض له جفن،عينه ترقب النجوم كالنسر، ويده على الشباك كالسجين الذي يلطم قضبان قفصه الحديدية.

أذَّن الفجر، فصلى الصبح، وبعد التعقيبات صوَّب نظره الى العريشة في أرض الدار وخاطبها:

«وأنتِ أيتها المنفية تبكين أيضاً حباً وحنيناً الى السهول والهضاب أم تبكين مثلي على فراق الأرض التي بدفئها ترعرعت وبين حواكيرها وزواريبها تعفّرت بترابها، يوم تفتحت الأزهار والورود، مع رذاذ حبات المطر –٢١ اذار عام ١٩٧٠ مع بزوغ الفجر زينت دنيا أبي وأمي كحبات الارز على العشب النابت، والدحنون المزين لأطراف الدار، وتحت قنطرة الطين أرضعتني أمي، وسط هذا الدار، هنا حبوت ودبدبت على تلك المصطبة ولعبت مع اشقائي وشقيقاتي».

خليل هو التاسع بين خمسة شباب وأربعة صبايا، بدأت حياته

حب ونار

المدرسية في مدرسة محيبيب الرسمية، وهو في الرابعة من العمر، وبجانب هذه الدار التي تزينها أحواض النعناع والورود، تنشق الهواء العليل، وبطين الارض، ودخان الموقدة تمرغ جبينه، على مدخل الدار حيث يوجد بئر المياه وإسطبل البقرات ركض خلف أمه، وتحت العريشةً كان يتفيء الظل منتظراً عودة أبيه من حرث الأرض ليضمه إلى صدره الحنون، وعلى قمم الجبال المحيطة تسابق مع ابراهيم ومحمد وشرب معهما من الأجران وشقوق الصخور عذب الماء حتى إمتدت شراايينه، مع شرايين شجرة السنديان، بهذا البيت الصغير كتب تاريخ وجوده، وعلى البيدر بجوار البيت وتحت أعين أمه نمت أظافره، وتسابق طفلاً مع قطرات الندى على الدحنون.. وبين كروم العنب وفي الهضاب بحث عن أعشاش العصافير، ونشأ مع شتلة التبغ وسنبلة القمح رفيقتي الطفولة، وعلى تلك الصخرة تحت شجرة السنديان حمل كتابه.

وعندما وصل الى هنا بتفكيره ازدادت نبضات قلبه وانهمرت الدمعة على خديه، وصار كأنه يسمع صوت زينب عليها السلام يعبر من كربلاء إلى مقام محيبيب بن يعقوب عليه السلام ،وتذكر كيف تعلق قلبه بمقام النبي عليه السلام ، وكيف كان يحث أقرانه على التوجه الى المقام والصلاة فيه، كان الكبار والصغار يسخرون منه، وقد بدأ الصلاة أبن سبع سنين،وقد أثار استغراب ودهشة جميع من هم حوله، خصوصاً في تلك الفترة التي لم تكن أجواؤها تساعد على ذلك، ولم يهرب من المواجهة، وأمضى أيام طفولته البريئة بين التهجير والخوف والقلق

الذي حرمه لذة طعم النوم وهو يلتحف السماء ويفترش التراب مع إخوته.. خوفاً من عمليات الكومندس «التسلل» التي كانت تقوم بها العصابات الصهيونية بحجة البحث عن المخربين «الفدائيين»، أو من شدة القصف الذي تتعرض له القرية «محيبيب».

حتى أنَّه يظن أنَّه نام في أحضان الصخور أكثر مما نام في أحضان والديه، وكل هذه المعاناة كانت تزيده إيماناً وصلابةً وعزيمةً لمتابعة تعليمه، بالرغم من مرارة الفقر والحرمان.

تابع خليل دراسته في مدرسة بليدا الرسمية،التي تبعد عن القرية حوالي خمسة كيلومترات، وكان يذهب إليها سيراً على الاقدام على طريق ترابي متعرجة، وعندما جاء عام ١٩٧٧ واحتل العدو القرية.. أصبح ينتظر مع عائلته كلَّ يوم جنود العدو وعملاءه متى يطرقون الباب أو يكسرون زجاج الشباك ويطلبون من الجميع رفع الأيدي،وليس ذلك إلَّا للتنكيل. مرةً يأخذون الحاج «أبا هاني» معهم الى مركز التحقيق..، وأخرى يكسّرون محتويات البيت، وقد شاهد بأم العين وحشية العدو وعملائه.

كانوا يتجولون في أنحاء القرية بكل وقاحة، ويعتدون على حرمات الناس وكراماتهم وأرزاقهم.كان يشعر أنَّهم يدنسون المقدسات، وعندما يسيرون على تراب القرية كأنهم يسيرون على أجساد أهلها، وكم تمنَّى أن يكون جسده عبوة ناسفة تمزق جنود العدو والعملاء.

أطلق زفرته الأخيرة «آه أيتها العريشة كيف أترك اليوم بيتنا وقريتنا لعدوٍ ظالم».

ضـم ذكرياته إلى صدره طويلاً، حاول أن ينام أو يعود إلى دروسه فلم يستطع، وكان الشيطـان يوسوس له بعدم الإستجابة لطلب رجال المقاومـة، وأن يبقـى مـع والديه، لكنَّـه شعر بتردد كبيـر، فالتكليف تكليف ولا بد من الإلتزام به.

تاريخ خليل حافل بالرغم من صغر سنه، فقد شبّ هذا الفتى وفي قلبـه يتدفق دم الشبـاب الثائر وهو لم يبلغ الحلم بعـد، فحمل كتابه باليميـن وشتلة التبغ باليسرى.. وعندما ضاقت به الأرض أخذ يبحث عن الطريق لمقاومة هذا العدو.. فوجد ضالته مع مجاهدي المقاومة الاسلاميـة يوم كان يقوم مـع أمه بزيارة إخوته في بيـروت في أيلول ١٩٨٣ عندمـا إلتقى بمجاهد من مجاهـدي المقاومة الاسلامية في بيـت أحد أقاربه وطلب منه المجاهد أن يزوده ببعض المعلومات عن العملاء وتحركات العـدو.. وإستكشاف المنطقة ووديانها ومغاراتها، وأحراجهـا.. كان خليل يعاني الكثير من صعوبة الخروج والدخول الى قريته محيبيب، وهو متظاهر تارةً بالعمل مع والده في الحقول.. وتارةً أخرى مع أخيه في عمل الحدادة أو بالدراسة في ميس الجبل.. «وبدأ العمـل منذ ذلك اليوم دون علم أحد، وكتم السر في داخله ودفنه بين ضلوعه حتى لا يشعر به أحد وهو يراقب تحركات العدو».

أمضى الليلة* خليل وهو يفكر بأمه،وبأبيه الذي أفرج عنه حديثاً من المعتقل، كيف ستكون حالهما عندما يعلمهما بقراره ترك القرية؟

أخذ يدعو الله أن يلهمهما الصبر.. «اللهم بحق سباية زينب،وبحق

* وكانت ليلة التاسع من محرم ..

كفـوف العباس، والأصحاب الذين لبوا نداء زينب في مثل هذه الليلة» وراح يتوسـل الله أن يخفـف عنهم وأن لا يجعل ألـم فراقه فوق الآلام الساكنة قلوبهم..

يطمئـن ثم يعود ويشفـق لحالهما،وفي أثناء جولتـه التي لا تنتهي بين الألـم والرجاء،يدخل الشوارع الضيقة تأخـذه أفكاره الى عوالم ليسـ لها وجود في هذه الدنيـا.. ومع إقتراب ساعة الفجر وقف خليل لصـلاة الليل محاولاً عدم العودة إلى ذكرياته القديمة فانصرف إلى الاهتمام بمتابعة دروسـه للإمتحان الرسمي. ولكنه لم يستطع ذلك، فوقـف وسط الدار لا يدري ماذا يفعـل؟ هل يخبر أمه؟ أو أباه؟ وكأنه وقـف وسط بحـر متلاطم الأمـواج.. إزدادت دقات قلبـه، وتسارعت الصور في ذهنه بين أيام الطفولة، والأيام القادمة التي معها سيتغير مستقبله وحياته..

راح ينتظـر أمه حتـى تنتهي مما فـي يدها ليطلب منهـا أن تخبر والده بأنه يريد الذهاب الى بيروت، وما أن سمعت هذا ألخبر رجفت ركبتيها، وإزدادت دقات قلبهـا المفعم بالجراح واللوعة، جلست على حافة المصطبة تذرف دمعة الأسى، حيث الهواء يعبث بكل شيء دون منـازع، تاركاً في حنايا الحاجة أم هاني البـرد والصقيع يجمّد الدم فـي شرايينها، ولهيب النار تحـرق قلبها حباً وشوقـاً، لأبنها وإبنتها الذيـن مازالوا في المعتقـل، ويشعل الحنين قلبها علـى من قرروا أن يرحلوا بإرادتهم، ويتركوا على جدران البيت:

«أماه! إذا مرّ الزمان ولم تريني فهذا خطي تذكريني»

حب ونار

قضى خليل ليلته الثانية في ضجر وحيرة وتململ وخوف من ردة فعل والده، وكاد أن يغيَّر رأيه، وفي صباح اليوم التالي جلس الى جانب والده في الجهة المقابلة لبوابة الدار، وكان الجو رطباً وبارداً بعض الشيء، وهما صامتين فما عساهما يتحدثان بمثل هذه الظروف فهو يريد النزول الى بيروت وأخوته مازالوا في المعتقل.

راح خليل يمد نظره عبر البوابة الى فسحةٍ واسعةٍ تطل على القرى والسهول والهضاب المقابلة لداره، وعلى الشريط الشائك الذي وضعه العدو بين حدود قريته وبين حدود فلسطين المحتلة، وكان بجانب الدار موقد اشعلته أمه تحت طنجرة الحليب، يتصاعد منه الدخان، وقد شرع يومها الضباب يتفرق في الوديان، ومع نسمات الصباح الباكر يعبق الدار برائحة الفل وعطر البيلسان..

يشده الحنين مجدداً الى مشاهدة قطعان الماشية وهي تقف بجانب بعضها البعض وكأنها بيوت تحتضن بعضها البعض لتشكل أنس النفوس ودفء العائلة وحنينها بين بيت أهله وبيت الجد والجدة..

تلك البيوت التي ترعرع بين أحضانها وتمرغ بوحل ترابها خلف قطعان الغنم والماعز..

ثم يقطع الهدوء رنين وقع أقدام الحصان وهو يعدو الى الحقل خلف صاحبه..وجلسا هو وأمه طويلاً وهم على هذه الحال من الصمت.وفي هذه الاثناء اقترب والده الحاج أبو هاني منه وقال له:

– الحمد الله الخير وفير بهذا الموسم، وربت على كتف خليل

– فقام خليل وسأله:أبي هل ترغب بكوب من الشاي وفي ابتسامته ملامح طفولية وعيناه تضحكان وفيهما الكثير من الحزن والإرتباك وقد خفت لمعانهما من خلف الرموش نصف مغمضة كوردة جورية تحاول الهروب من الرياح العاتية.

وقد أحاط الحاج أبوهاني بيده شعر خليل الاشقر المتموج بطبيعته وقال:

– خليل يا بني الغالي عندي كلام كثير أريد ان أقوله لك، وأسئلة كثيرة أريد أجوبةعليها، دون أن أطرحها عليك وأريد أن اسمع منك، ماذا تريد؟ وما تحتاجه؟ وكما أنت لا تخفي عني شيئاً يا بني وبصراحة كاملة حدثني.

صمت خليل وطأطأ رأسه الى الأرض فهو لم يقف يوماً أمام والده، بمثل هذا الموقف المحرج، ولم يتعود أن يطلب منه شيئًا مهما كان بسيطاً فكيف يطلب منه ماهو موجع ومؤلم؟.

ربت الوالد على كتفه ثانيةً وقال:

– هل حقاً ما سمعته من والدتك بأنك تريد الذهاب الى بيروت؟!! ولماذا بهذا الوقت يا حبيبي؟!! وأنت على أبواب الامتحان للشهادة، ونحن بأمس الحاجة إليك في موسم الحصاد وفي محل الحدادة بغياب أخيك في المعتقل!!!

ولم يجد خليل ما يقوله من كلام لأبيه، فتوجه نحو المقام يستمد

العزيمة والإرادة والحكمة منه:

«ياصاحب المقام يا محيبيب بنيامين بن يعقوب عليه السلام ساعدني»

هي لحظات لم تكن كثيرةً ليخلع عنه خليل ثوب المراهق الحالم ويرتدي لباس المقاتل والمقاوم الباسل. إنتفض من الداخل وهو يقول في نفسه:

«لا لا لن أسمح للشيطان أن...،إنها لحظة المنى وفرصة اللقاء مع سيد المقاومة ورجالها وشهداءها»... ثمَّ يلتفت الى أبيه ويقول:

- نعم يا أبي لقد حان وقت سفري.

قطّب الوالد حاجبيه غضباً وحزناً، ولكنَّه حاول إخفاء ذلك لعله يستطيع أن يثنيه عن قراره أو معرفة ما يفكر به إبنه المدلل وقال له:

- ألم تنظر الى حال أمك فدموعها لا تجف على فراق إخوتك، هل تريد أن تقتلها من القهر ألا يكفيها ما هي فيه؟ أرجوك يا بني أرثِ لحالنا قليلاً وأرفق بنا، وأترك طيش الشباب.

- أبي ارجوك لا أريد أن تغضب مني ولكنني سئمت الحياة هنا

- ولكن هل سنلتقي مرة جديدة هنا وتشرب الشاي معنا؟

- العلم عند الله يا ابي لا أظن ذلك، أنني لا أستطيع العودة قريباً.

قال خليل هذه الكلمات والعرق يتصبب منه وقدماه لم تعد تستطيعان حمله. جلس على حافة الحوض واسند رأسه الى جذع العريشة، وأشاح بوجهه، وهو يخفي دموعه التي كانت تتلألأ على

رموشه من حين الى آخر.

قلَّب الحاج أبو هاني يداه وهو يقول:

-والله شيء مضحك، والله أمر مضحك،ثم أردف قائلاً:

- وكيف تتقدم للإمتحان أو أنك تريد الهروب من أجل ذلك الى بيروت، إذا كان من أجل ذلك لا تحمل همنا يا حبيبي وإذا لم تتمكن من الدراسة جيداً بسبب الظروف التي مررنا بها وتخاف الفشل يمكنك أن تتقدم في الدورة الثانية وبإذن الله تنجح، ولا بأس المهم أن تبقى معنا حتى تنتهي من الثانوية العامة وعندها تنزل الى الجامعة، وهكذا لا تعطي حجة للكلام علينا وعليك

عندها وقف خليل:

- يا أبي ارجو أن تفهمني لم يعد في مقدوري البقاء هنا لا بد من مغادرة القرية، ويمكنني تقديم الامتحان في محافظة النبطية ويحق لي ذلك، «حيث هناك نقدم الطلبات» ومع هذا فأنا مستعد أن أنفذ كلامك دون تردد وأتحمل كل شيء في سبيل إرضائك

صاح الحاج «ابو هاني» بلهجة صارمة وفيها شيء من الغضب والقهر:

- أريد أن أفهم لماذا؟ بهذا الوقت بالذات!! ومماذا تخاف؟ ومن هو الرجل الذي حمل إليك الرسالة؟ وماذا كان بهذه الورقة؟..

صمت خليل وطأطأ رأسه الى الأرض ولم يجد ما يجيب به، بعدما

أشبعـه أبوه بالكثير من الكلام القاسي الذي لم يعتد على سماعه من أبيه من قبل،وبقي ملتزماً الصمت والهدوء والصبر «وهذا دأبه».

وانصـرف الحاج يتمتم ببعض الكلمات وهوغاضبٌ،يريد الوصول الى البيادر كي يتابع عملية التحضير للحصاد، تاركاً خليل في حيرته. بعدمـا رجا خليل والده بكل العبارات الرقيقة وبكل أحترام وتقدير أن لا يضع له العصي في طريقه، أخذ يتوسله ويطلب منه مسامحته، ولما غـادر راحت الدموع تترقرق من عينيه كما تترقرق حبات المطر على الزجـاج الشفاف. ولـم يجد بداً من العودة الى حضـن أمه الدافئ، وصـار يمسـح بطرف منديلهـا دموعه وعرقـه المنسـاب على خديه وعيونه ويتوسلها:

- أماه أرجوكِ إقنعيه، أرجوكِ إقنعيه أن يسمح لي بمغادرة القرية.

- لا أستطيع فعل شيء يا أمي

سكـت خليل مطرقاً مستسلماً لما تريـد الأيام أن تأتي به إليه،فهو المؤمن الذي يستسلم لإرادة الله ويذكره قبل وبعد كل شيء ويقول في سره مسلماً:

- وحده عز وجل القادر الذي بيده مقاليد كل شيء.

الرحيل

جلس الحاج أبو هاني على تلك الصخرة التي كان يجلس عليها خليل تحت شجرة السنديان على البيدر القريب من البيت، يراقب خليل وهو يروح ويجيء متظاهراً بالدراسة والهدوء، والحاج يشعر وكأنَّه يمر بمخاض عسير، يطبق الحاج عيونه على جمرات حامية تتوقد على بعضها يكتم ألمه في صدره ويغرق في تفكيره وتساؤلاته:

ما هي الأسباب التي يا ترى دعت خليل إلى تغيير رأيه ومغادرة القرية بهذه السرعة؟!

ثم يردف قائلاً في نفسه:

مهما تكن الأسباب لن أوافق على طلبه ببساطة ودون معرفة الأسباب التي حملته على سلوك هذا الطريق.

لاحت للحاج أبو هاني فكرة... ربما..!! إنتفض واقفاً..ربما... يا الله!!

ما لا يريدني ولدي أن أعلمه هو أنَّ هناك تعليمات سرية..!!

حتى هو لم يجرؤ أن يلفظها... يريد أن يخفيها...إنَّها كلمة «العمل مع المقاومة»

أخذ يفكر بشـدة: ربما ذلك قد حصل...فإن إصرار خليل وبهذا الشـكل للحصول وبأي ثمن على التصريح ومهما كلف الأمر يدل على ذلك.... جيد

لـم يكن مـن السهل الحصـول على تصريح للخـروج من القرية، والحـاج يخشى علـى إبنه من الإعتقـال أو التجنيـد الأجباري، ومن خفافيش الليل وعيون البوم أن تلحق الأذى به.

ويقـول في داخـل نفسه: بوسع هؤلاء العمـلاء منعه من الخروج أو الدخـول أو.. ثـم يضرب على رأسه ويقـول أف لو حصل مكروه له لن أسامح نفسي على هذه القسوة معه.

فاسـودت الدنيا في عينيه وهو يتصوَّر جنـود العدو وعملاءه كيف يقودون الشباب إلـى التجنيد الإجباري أو يسوقونهم الى المعتقلات. عندها أحس الحاج بالخوف، وشعر بالخطر على ولده فعاد الى البيت وبدَّل ثيابه على عجل، وتوجه نحو بلدة ميس الجبل عند الظهيرة عله يجـد مسـؤول العملاء فيسأله عن التصريح، بحـث عنه في كل مكان دون جـدوى لـم يجده، وقبـل الغروب بقليـل عاد الحـاج يحمل خيبة الأمل.

كان خليل يضغط على أعصابه، ويعض على شفتيه، ويزداد عبوساً وأفكاراً سوداء تراوده بأنه لن يتمكن من الخروج قبل إعتقاله وإكتشاف أمره، وماذا سيحل به وبأهله؟ وإذا تمكن من مغادرة القرية غداً،كيف

سيكون حالهما؟ وبينما هو كذلك وصل أبوه وهو يقلب كفيه.

جلس خليل بعيداً حتى لا يلحظ احد حيرته وإصراره، يتجنب النظر في وجه أبيه الذي بدت في ملامحه أنواع اللوم والعتاب. ويتوجه نحو السماء «اللهم لا أسألك ردّ القضاء إنما أسألك اللطف فيه... أنت أعلم بخافية النفوس وما تكنُّ الصدور.. لن أتمكن بعد ذلك من مغادرة القرية أبداً.

وبينما هم على هذه الحالة من التوتر والخوف،ووصل خبر مجيئ مسؤول العملاء لأخذ الضريبة الشهرية «أوالغرامة المالية» من أهل القرية،إنتعشت النفوس مرةً أخرى كما تنتعش النار بنفحة النسيم، فأرسل خليل أباه ليحاول الحصول على التصريح،وجلس بعيداً خلف الحائط وسط الساحة،عله يسمع خبراً يطمئن قلبه.

وأخذ الجدال وقتاً طويلاً بين طلب الحاج وتوسلاته، وبين التهديد والوعيد ورفض مسؤول العملاء إعطاء التصريح،إنتابه القلق على مصير إبنه وأخذ يقطع له الوعود بأن خليل لن يتأخر في بيروت،وسيعود في اليوم التالي بسب الامتحان الرسمي،ويشرح له أنَّ سبب نزوله الى بيروت هو فقط من أجل إستلام السيارة التي بعثها أخوه له من المانيا وهي بإسم «خليل». عبثاً يحاول الحاج تهدئة الخواطر مع هذا المسؤول الخبيث، ولكنه ازداد تهديداً ووعيداً «بأنه لن يتركه يذهب إلى بيروت قبل الخدمة في جيش العملاء». يزداد الذعر في قلب الحاج وبدأ يشعر بأن شيئاً غير عادي يدبر الى خليل وقد أخذ يتولاَّه الخوف على مستقبل إبنه،وبعد طول جدال فهم الحاج

مـاذا يريد هذا العميل من كثرة الاعتراضات الرخيصة والمساومات الحقيرة،وبلهجـة التوسل والإسترضاء قـال الحاج: لا تخف لن أنسى لك هذا الفضل غداً صباحاً أبيع البقرة واعطيك ما تريده ولن أنتظر عودتـه من بيـروت، عندها هزّ العميل رأسه وسحـب دفتر التصاريح ودفع إليه بتصريح خليل.

أقبـل الليل، تناول خليـل عشاءه الاخير مـع أهله،وهو هادئ البال مرتـاح الضمير، صعد الى غرفته استلقى علـى فراشه بكل إطمئنان وأطفأ جميع الأنوار ونام ملء جفونه تحت ظل القمر بسكون تام.

وقامت أمه تحضر له ثيابه، وتكدس الحبوب، واللبنة.. وكأنه ذاهب إلى أرض بعيدة جرداء لا يوجد فيها طعام ولا شراب وتقول له:

– بنـي خليل لقد وضعت لـك الخبز المرقوق واللبنـة بالزيت.. لا تنسَ أن تأكل وتشـرب جيداً، وضع اللحاف علـى معدتك، لاتستخف ببرد الصيف!.

وفـي الساعة السادسة صباحاً من يوم السبت، وعندما سمع زمور الباص الذي سينقله الى بيروت وقف خليل يقبّل يدي أمه وأبيه.. وقد استحالت وجوهاً تحتقن بالقهـر والمرارة والخوف على آخر العنقود ودلـوع العائلة، ورفعت راحات الأيادي محاولـةً كبت صرخات القهر، ووضعـت علـى الأفـواه تمنعها مـن الإنفجـار جراء حبسهـا، ولوحت الأيادي بالوداع وتشابكـت الأصابع كأغصان الاشجار.. ملامح وجه أبيه تطمئنه.. أراخـت هذه الطمأنينة ظلاً خفيفاً على قلب خليل في هذه الدقائـق الطويلة والثقيلة، ثم رفع خليـل أنامله ليمسح قطرتين

إحداهمـا ترقرقت على وجنتيه،والثانية عن قلب أم ينسلخ منها فلذة كبدها..

حمـل ثيابه وخرج مسرعاً الى الطريق، صعـد إلى الباص، بعدما أسلمه القدر الى الهجرة مرغماً، جلس بجانب الشباك، وإنطلق الباص ببـطء وسط الأزقة الضيقة، وبين البيوت القديمة والخالية من أهلها والتي توجتها الاشجارمن كل جانب مع بعض أجباب البلان المتشبث بصخورهـا فما كان عليه أن يودّع إلا من خلف زجاج الباص، أطياف العجائـز وسط الساحة الحزينة، وكان السكـون يلف كل شيء،وألقى نظـرةً أخيـرةً على الـوادي فـي أسفل الجبل الـذي تقع عليـه قريته محيبيب،غيـر أن الضباب الكثيـف المنبعث على شكل موجات البحر الهائـج تحجب لحظـة الوداع،وبين الفينة والأخـرى تلمع في السماء المعتمة بعض خيوط أشعة الشمس.

يتابـع الباص سيره نحو بلدة ميـس الجبل(التي تبعد حوالي أربعة كيلـو متـرات عن محيبيـب) ويعبر فوق مـا تبقى مـن الإسفلت الذي قطعـت أوصاله مجنـزرات العدو ودباباته كما قطعـت أوصال العائلة والوطـن.. وخليل شاب متأهب للغوص في ذكرياته العالقة فوق القمم البعيـدة كأنّهـا قطع من ستـارة ممزقة بالأفق الشاحـب الذي مازال يحتفظ بآخر بريق للشفق. خرج خليل من القرية بصباح هادئ هدوء قلـب الانسـان ساعة صـلاة االفجر،ما عدا هبات نـادرة من نسمات الهـواء تهزّ اغصان الاشجار التي غطاها نـدى الصباح، وفجاةً على مداخـل القرية يقف الباص،وقد التقى بمسؤول العملاء عند منعطف

ضيـق وخطير، وأصبحوا جاهزين للسقـوط، فعن اليمين حفر كبيرة وعميقة وعن الشمال الوادي، نادى سائق الباص مذعوراً:

– «يا علي يا علي يا عالي في سماها نجِنا من هذا البلاء».

وكان الرعب يملأ قلب العميل وهو يرتطم بجانب الباص أكثر من مرة.. وقـد تنفخت عيناه من شدة الغضـب، وكانت لحظات حَّساسة وصعبةً، لحظة واحدة تفصلهم عن الموت المحتم. وعندما وقع نظره علـى السائق وثب عليه وأسمعه سيلاً من الكلمات البذئية والإهانات، وكان يهزّ برأسه كالكلب المسعور مهدداً.. فقال خليل:

– يـا له من شقي، ألا يخجل من نفسه هـذا اللعين، وكأنه شيطان رجيم،سحنتـه سحنـة قاطع طريـق ولا يأخذ العبرة ممـا يحصل له منـذ دقائق نجا مـن الموت، وسابقاً طارت عينـه ولا يكف عن عذاب الناس،ياله من شقي.

فأجابه سائق الباص:

– ربك كريم.

– لـن يعود أمامه الكثير من الوقت فإنه ماضٍ الى حتفه بإذن الله إذا نجا في المرة السابقة من أيدي المقاومين ومن الإعدام لن ينجو في المرة القادمة.

لمـا أحسَّ أنَّه تجاوز هذا القطوع الصعب، نزل العميل من سيارته لينظر إلى ما حلّ بها، وراح يكيل الشتائم للسائق مجدداً.

شاهد خليل العميل يضع مسدسـه المرصّع بالفضة فوق قميصه، وعاد المشهد الى رأسه وبدأ يسمع صراخ أمه من جديد، بذلك اليوم

المشؤوم وأثناء عودته من قطاف الزيتون في ١٨/١٠/١٩٨٩ وما أن اقترب من البيت حتى وجد جنود العدو وعملاءه يطوقون بيتهم ويكسرون محتوياته.. وهم يبحثون عن سلاح أخيه الذي كان منتمياً الى أحد الاحزاب اللبنانية المقاومة، بعدما كانو قد إعتقلوا أخيه وأبيه وأخته «الذين بقوا لأكثر من سنتين» وكانوا يومها يصوبون أسلحتهم الى رؤوس الاطفال، وما أن إقترب منهم خليل حتى القوا القبض عليه وإنهالوا عليه ضرباً، وإزاء ما فعله هؤلاء العملاء، وقعت الأم على الأرض من شدة التعب والإرهاق صارخةً بهم:

– ما الذي جاء بكم إلى هذا المكان يا أعداء الله؟! ماذا تريدون منّا؟..

فتقدم منها هذا العميل وأخذ يضربها ويجرها على الأرض، وراحت الأشواك الحادة تمزق ثيابها وأغصان زهرة القندول اليابس تضرب وجهها، وخليل كالحصان الجامح يقفز فوق جذوع الاشجار المقطوعة وهي تمزق جسده، يحاول أن يرمى بنفسه عليها، ولكنهم إنهالوا عليه وعليها ضرباً بأعقاب البنادق،غير أن يداً دفعته بعيداً فاصطدم بأسوار الدار صدمة جعلت السور يترنح .

وهذا العميل يركل والدته بقدمه مثل الطابة،ولم يستطع خليل حمايتها.. ولم يكتفِ بذلك بل راح يدور بها وسط الحشد من الناس ملوحاً بمسدسه كأنه الشيطان الرجيم، وأراد أن ياخذها معه الى معتقل الخيام، فهبّ الجميع وساد الهرج والمرج فتركها مغشياً عليها.

حب ونار

كان هـذا المشهـد من أصعـب المشاهد على خليـل، فتلك الليلة كانت من أشد الليالي ألماً وسواداً، وبقي هذا المشهد يؤرِّق نوم خليل ويقض مضجعه، ويرافقه طيلة الأيام والليالي.. وما عاد يرى في تلك اللحظة غير الأفاعي وهي تزحف فوق الأخاديد الصخرية المجاورة، شحب وجه خليل شحوب الموت، وعندما علا الغبار كان يردد:

حقير حقير شيطان.

ولاحظ سائق الباص ذلك على خليل حاول أن يخفف عنه ويقول:هون عليـك يا ولدي لو تشاهد تلك المرأة لبكيت دماً، الله وحده يعلم ماذا فعلـوا قطاع الطرق هؤلاء بتلك المرأة التي كانت ممدة بالأمس معهم علـى المقعـد الخلفي وهي مقيـدة اليدين والساقيـن ورأسها ملفوف بنصف حجاب؟!! آها الله يحميها منهم.

ساد الصمت، وتابع الباصـ سيره نحو ميس الجبل.. وبعد أن ودّع خليل قريته وهو «يشد» على أسنانه، شرع يبحث في حقيبته، وأخيراً أخرج منها دفتراً وألقى عليه نظرة، وقد ارتسمت على وجهه الشاحب علامة الحزن مرسلاً نظره الى الأفق البعيدة.

ويقـف الباصـ بجانب بركة المياه الراكـدة لينتظر، وصول بعض الركاب.

اللقاء

منح خلاء صباح يوم السبت الباكر، صوت ارتطام كعب حذاء رفيع على الأرض، رنيناً مميزاً يرتد صداه مجيباً النداء في الأرجاء، وأطلت فتاة في الثامنة عشرة من العمر كالنرجس، شعرها محلولٌ ومرسلٌ من فوق كتفها تفوح منه رائحة العطر التي إمتزجت مع رائحة الياسمين .

وجهها يكتسيه شحوبٌ كامـدٌ يخفي وراءه قلقاً، وكانت يدها تطوف على الحقيبة بلا هدف وهي ترتعش إرتعاشاً خفيفاً، وصدرها يعلوا تارةً وتـارةً يسكن كأنها تحبس أنفاسهـا، مدت يدها وناولت خليل حقيبتها الصغيرة، وقد سمع خليل حفيف ثوبها. قبل أن تجلس بجانبه، وعندما اسـرع الباص إنسلت خصلات من شعرهـا الأسود على وجهه، والتفَّ كأذرع أخطبـوط عملاق،مد يده متـردداً ليرفعها، شعر خليل بالخجل الممـزوج بطعم الزهو والغبطة.. وأحسـّ بشيء غير مفهوم يحدث في روحه وتملكه شعور غريب.

وسمـع سائـق الباص يقـول لها هيـا أسرعي ياعلا وهـو يدحجها بنظراته الفاحصة بين الفينة والأخرى.

فتح خليل الكتاب متظاهراً بتصفحه وهو يحاول لفت نظرها بالقول:

– بعـد فترة قصيرة عنـدي إمتحانات رسمية لشهـادة البكالوريا فرع الاقتصاد والإجتماع.

فلم تعره علا انتباهاً ،وأخذت صنارة الحياكة وكرات الصوف الملونة وعيـدان الغزل مـن حقيبتها ،وراحت تنسج كنزة الصـوف التي بدأت تنضج معالمها مع مرور الوقت، ولم تنتبه إلى من يجلس بجانبها.

ومع تجاوز الباص نهر الخردلي التفت خليل نحوها وانتهز الفرصة حين رفعت رأسها.. وقدم لها بكل تهذيب قطعة من الشكولاتة وبادرها بسؤال:

–أين ستنزلين؟ ها نحن اقتربنا من مدينة النبطية

لم تجبه وقد إعتلت حمرة الخجل وجهها ثم تابع:

– هل أنت وحدك؟

نظرت إليه بتعجب وشيء من الاشمئزاز!!فلم يثنه ذلك

– لا تنظري إلي بإستغراب، سننتظر كثيراً على المعبر ولا بأس إذا تحدثنا قليلاً لتمضية الوقت..سأعرفك بنفسي خليل جابر

تنفست علا ضيقاً وعادت الى صنارتها، ولكنها بقيت صامتة وقد تملكها الخجل.

وبدا له أنها تنتظر سؤالاً

–هل أنت ذاهبة من أجل الدراسة؟

– نعم، أجابت بهدوء ودون أي انفعال.

– وفي أي جامعة؟

– لست طالبة جامعية، أنا أدرس مهنة التمريض وذاهبة للتدرب في المستشفى الحكومي بصيدا. أجابت دون تردد

– أنها في منطقة «بعيدة عن القرية» ولا يمكنك الذهاب والعودة في كل يوم، فالمسافة بيننا وبين مدينة صيدا تحتاج من ساعة ونصف الى ساعتين من غير إنتظار على المعبر الذي قد يتجاوز السبع ساعات... (لا شك أنَّه وضع يده على موضع الجرح)..

– نعم إنها بعيدة كثيراً ولا يمكنني العودة الى القرية في كل يوم وكما تعلم العدو وعملاءه يفتحون يوماً ويغلقون المعبر أياماً.. ففي السنوات الماضية كنت لا أضطر الى ذلك وأما هذه السنة عندي إمتحان رسمي ولابد من التدريب العملي من اليوم وحتى الأول من ايلول موعد الإمتحانات.

– إذاً أين ستسكنين؟

– في المستشفى أو عند خالتي التي تسكن في مدينة صيدا منذ زمن طويل.

– ولماذا لا تنزلين الى الضاحية الجنوبية؟؟ وتدرسين هناك حيث يوجد الكثير من المستشفيات والتنقل يكون هناك أسهل

رمقته علا بطرفها مستغربةً كلامه..،وفكرت: أف له يا الله ما دخله بذلك....لماذا يتدخل في كل التفاصيل؟

أحس خليل بما يختلجها فأضاف:

–فقط ما أردت قوله بأن الحياة سوف تكون متعبةً لك بسبب التنقل..

صمتت علا ولم تجد ما تقوله،وعادت للحياكة من جديد وساد الصمت قليلاً.

عاد خليل الى كتابه علّه يقطع الوقت ويفتح المعبر وقد ملّ الإنتظار،وانهمكت علا في حياكة الكنزة وقد أنهت الجزء الكبير منها وبدأت بالأكمام، فهي تغطي مصروفها من الحياكة، نظرت الى الساعة والدهشة علت وجهها:

- إنها الساعة الواحدة والنصف ولم نتجاوز هذا المعبر اللعين بعد، أفّ لهذه الزحمة لن تنتهي اليوم!

ضحك خليل وهمس لها:

-ألم أقل لك الطريق طويلة؟ حياكتك جميلة جداً واختيارك للألوان أجمل.

وعاد لمتابعة الحديث،نظرت إليه بطرفها وتابعت الحياكة:

-شكراً لك...

أردف خليل قائلاً:

- إنها أجمل من المنتجات الأوروبية.

ابتلعت علا ريقها، حدّثت نفسها: «إن هذا الشاب لا يعرف السكوت، مع أنَّه لطيف ومهذب،فلماذا يعاكس بنات الناس؟!

خليل: عفواً يا آنسة لم أرد أزعاجك ولكن أحببت ان أخفف عنك وطأة الإنتظار.. ومساعدتك على تقطيع الوقت

تبسمت علا

- لابأس

نزل خليل من الباص يبحث وسط الناس عن مكان بعيد عن عيون العمـلاء لأداء صلاة الظهـر والعصر بعد مرور أكثـر من ساعة على الأذان، وقرابـة الساعة الثالثة والنصف فتح المعبر وبدأت تمر بعض السيارات وبدأ معها قلب خليل يرتجف وتسارعت نبضاته كخرير مياه نهر الخردلي خشيةً اعتقاله من قبل العملاء على المعبر.

وصل الـدور للباص الـذي يستقله، تقدَّم أحـد مسؤولي العملاء، وطلـب منهـم التصاريح.. وأخـذ يسألهم واحداً تلـو الآخر عن سبب نزولهم، ومتى يعودون.. وما أن قطع خليل هذا الحاجز البغيض بسلام حتى همَّ بالطلب من السائـق الوقوف ليسجد لله حمداً وشكراً..لكنَّه تراجع خوفاً من افتضاح أمره.

وبعـد أقل من ساعة وصلـوا الى مدينة صيدا ووقـف الباص أمام مدخل البناية التي تقطنها خالة علا، فقال خليل ملاطفاً:

- ها قد وصلنا بسلام..

ورفعـت إليـه عـلا عينيهـا السوداويـن وفيهمـا الكثيـر مـن التساؤلات،وكأنها تتوسل القدر أن يدوم اللقاء ولا ينتهي.

وقد أحسّ كلَّ منهما بحرارة الفراق وبرجفة الوداع.

- مع السلامة يا آنسة علا إلى اللقاء..

وبقيـت نظرات خليـل تلاحقها حتـى مدخل البنايـة. دخلت علا المبنـى.. وهـي تنظـر خلفهـا وكأنهـا تخشـى أن يلحق بهـا.. وكان لحوارهما قدر كبيرمن الأنس

حب ونار

خفض خليل رأسه لا يريد أن يحادث أحداً من الركاب وغطس مجدداً في موج خياله، ركن ظهره على كرسيه ساهماً بنظرته نحو أشعة الشمس وقد إنكسرت على الواجهات الزجاجية لبعض المحلات التي تشير الى أسماء أطباء ومحامين ولافتات..، وفيما اختلط هذا المشهد مع رائحة الطعام.. وضجيج السيارات وإزدحام الناس.. لم يلاحظه خليل من قبل.. وبينما هو محلقٌ بجناحيه في الفضاء بذكرياته، وقف الباص أمام مدخل المبنى الذي يسكنه أخوه سامي، ليجد أخاه وأطفاله ورفيق الطفولة محمد بإنتظاره، وكان في السهرة الكثير من الحكايا والقصص الساخنة عن القرية وأهلها، والأطفال يتحلَّقون حوله فيضع هذا على رقبته والثاني في حضنه، وتحت ضوء القمر يكمل محمد وخليل السهر بحديث الهمس عما جرى وسبب هذه الرسالة التي طلب فيها منه ترك القرية بهذه السرعة، وبعدما أخبره محمد بأن خفافيش الليل كشفت أمره، وبأنَّهم خافوا عليه أن يقع في الأسر، أرسلوا في طلبه. إطمأن قلب «خليل» لينتقل بعد ذلك لكيفية العمل في المرحلة القادم..

ومع إنتهاء السهرة وضع خليل رأسه على الوسادة وقبل أن يغمض عينيه سمع لحن صوت عذب غامض همس في قلبه، جلس وترك الخيال يرسم له الصورة وهو حر طليق، فلم يجد ردَّ فعلٍ لذلك الجمال والروعة والهدوء و.. غير تسبيح الخالق على ما خلق.

عندما يحين موعد الحب

بعـد مضـي يومين على وجوده فـي بيروت الغربية عنـد بيت أخيه سامـي، شعر خليل باالضجر فهو لا يستطيع السكن ولا الدراسة، يمد بنظـره فلا يـرى إلا المبانـي الشاهقة التي تختلـف بألوانها.. شحب نظـره وقطب حاجبه وشعر كأنه هبط إلى قـاع بئر قاتم الأعماق مما جعله كرجل بلا طموح أو مواهب، وأحس بأنه لا يمكنه أن يكون جزءاً من هذا الضجيج، فهو إشتاق لتلك المناظر الخلابة من سنابل القمح وهـي تتموج في الحقـول بألوانها الجميلة، وإلى حبـات اللوز المتدلى علـى الأشجار النابتة علـى أطراف الطريق، وشتلـة التبغ وهي تسبح الخالق، فخليل لم يتعود على الحياة في المدينة.

لاحت اليـه فكرةً خرقاء، وأخذ يجمع أغراضـه للعودة إلى القرية والجميـع يتوسله الإنتظار إلى ما بعد الامتحانات التي جاء إلى بيروت مـن أجلها «هكذا أخبرهما» «ولـم يبق لها إلا أيام، وخليل بقي مصراً على رأيه.

حتى مع وصول محمد، بقي مصراً ولكنه عندما أسر له بخبر لقائه

مع أحد قياديي المقاومة قبل البقاء إلى ما بعد الإنتهاء من الامتحان، وكان وقـع هذا الكلام على قلب الجميع كوقـع الماء البارد على رمال الصحراء.

مـرت عليه أيـام على هذه الحـال، فدعته أخته الكبـرى لزيارتها فـي مدينة صور الجنوبية حيـث تسكن مع عائلتها. إنتهز خليل فرصة عودته من مدينة صور الى بيروت، توجه للسؤال عن علا في مستشفى صيـدا الحكومي حيث تقع مدينة صيدا في منتصف الطريق.. وكانت علا قد باشرت دراستها وعملها، وهي تمضي ساعات طويلة في مكتبة المستشفى باحثة في القواميس عن معاني المصطلحات الغربية التي تعجّ بها الكتب، فهي بحاجة إلى إتقان اللغة الإنكليزية..

علا وبينمـا تحدث نفسها: «يا الله ما أصعـب هذه المصطلحات» وهي منهمكة بالبحث، انتبهت إلى شاب يقف بجانبها وينـاديها:

– آنسة علا..

رفعت عينيها وسرعان ما انتفضت

– «يا إلهي أفي حلم أنا أم في يقظة!!؟ من؟خليل جابر؟

يهتف في رقة:

– نعم.. خليل جابر؟ يا آنسة علا....

– ماذا تفعل هنا يا خليل؟ هل أنت مريض؟ أو..

يبتسم خليل:

– ألا يحق لي ذلك..

– لا.. لا.. لـم أقصد ذلك، ولكنني تفاجـأت قليلاً تفضل لنجلس

في الكافيتيريا.

فضل خليـل الجلوس في حديقة المستشفـى على العشب الاخضر وفي الهواء الطلق، وأخذ يتناول أطراف الحديث مع علا عن الدراسة.. وعن الفرق بين الحياة في المدينة وفي القرية...

بهـذه الأثناء تصل منـال صديقة علا وزميلتها فـي الدراسة،ولما تفاجأت بوجود خليل قالت:

السلام عليكم..خليل جابر وعلا في مكان واحد.. يا سبحان الله!! ما الذي جمعكما؟

- أهلاً يا أخت منال

- مرحبـاً يـا عـلا أرجو المعـذرة علـى التأخير فأخـي محمد هو المسؤول عن ذلك..

- حصـل خير لم تتأخري كثيراً، كنـت أبحث في الكتب عن بعض المصطلحات

- أين محمد يا أخت منال؟

- أنت ادرى مني يا خليل..

- ومن أين تعرفين علا؟

- علا صديقتي وأختي وهي عزيزة جداً على قلبي..

ثم التفتت الى علا وقالت:

- خليل يا علا إبن قريتناً وجارنا ويمكنه مساعدتك.. إذا أردت.

فقال خليل:

- أنا حاضر لأي مساعدة تطلبها الأنسة منال أو علا

تبتسم علا:

-شكراً لكم..لا أريد إزعاجكم

- لا تقولي ذلك نحن في خدمتكم إنشاء الله..

وأصبح خليل منذ ذلك الحين يحب أن يراها دون أن تراه،ليشاهد تلك الإبتسامة على شفتيها.أثرت تلك الإبتسامة به كثيراً،وكان يريد أن يطمئن عليها من بعيد.

وتمرّ الأيام وتتوطد العلاقات بين خليل وعلا وهما ما بين الدروس واللقاءت في بيت أصدقائهم محمد ومنال،وكان خليل دائم البحث عن عمل لتأمين مصروفه، خاصةً وأنه لم يوفق في الامتحان ولا يريد إعادة السنة، وشاءت الظروف أن تهيء له فرصة الإقتراب من علا أكثر، بعدها قرر أخوه أن يفتح له محل للحدادة الافرنجية في مدينة صور حتى يبقى تحت نظر أخته الكبرى، فأخوه يخشى عليه من صاحبه محمد، ويخاف أن يأخذه معه نحو العمل العسكري في المقاومة، وسعى بكل جهده الى تأمين عمل له بعيداً عن محمد، ظناً منه بأنه يبعده عن المقاومة وخطرها..

الإرادة المعاكسة

فجــاةً تنقطع علا عن المستشفـى، وينشغل بال خليل عليها كثيراً، ويبــدأ بالتساؤل عن سر غيابها، وبعدمــا يأس من الإنتظار توجه نحو بيت منال للسؤال عنها:

- يــا أخت منال ما بال الآنسة علا هل هــي مريضة؟ هل أزعجها أحد؟.. منذ أسبوع لم نسمع لها صوتاً

- لا ياخليل علا تحب الهدوء ولا تعجبها هذه الاجواء كثيراً..

- عن أي اجواء تتحدثين..

-الوضــع السياســي وغيره.. وهي تخــاف كثيراً لأنهــا تتردد على القرية وأيضاً هي على أبواب إمتحانات.

غابــت علا أسابيع فــي القرية، فشعر خليل بوحشــة لا عهد له بها مــن قبل، وثقلت الحياة على كاهله، وكاد أن ينفذ صبره بعد أن عرف من منال بأن علا قد لا تعود الى المستشفى بعد نجاحها، وتمر الأيام ببــطء ويمضي شهر ونصف وخليل ينتظــر عودتها أو عله يسمع خبراً يفرح قلبه.. وتعود علا للعمل فــي المستشفى بمساعدة أحد أقاربها،

وتأتي لزيارة منال، ويعلم خليل من محمد خبر عودة علا وكان من أجمل وأندى ما سمعته أذناه، وأجمل بشرى وكانت مذاقها أحلى من العسل على قلب خليل. وفي اليوم التالي توجه خليل لزيارة علا وكانت تجلس على مدخل باب المستشفى بعدما إنتهت من عملها:

– علا أين أنتِ هذه الأيام؟ اشتقنا لكِ، لقد مضى وقت طويل كنت أنتظرك على أحرّ من الجمر...ولم اسمع عنك خبراً

نطقت بها جوارحه قبل لسانه وسعادة كبيرة تغمر وجهه

انتفضت علا من مكانها،لا تعرف ما تقول، وكان المدخل يغصّ بالزوار.

–خليل ما الذي أتى بك إلى هنا؟! هنا مكان عمل

– كنت أبحث لكِ عن هدية النجاح، مبارك نجاحك لأنك تستحقين كل خير بعد هذا العناء، والحمد لله الذي أنعم عليك بالنجاح وبفضل حسن التوكل عليه حصلت على الشهادة.

لم ترفع علا عينيها ولم توليه نظرة، ومد يده يقدم لها الهدية وهي مطرقةً إلى الأرض وأصابعها لا تزال تعبث بما فيها سألها خليل

– فيمَ تفكرين؟

فأجابت بصوت خفيف مرتعش:

– فيم أفكر؟!! في سحائب هذا الخريف، وفي رائحة التراب،وفي الأغنام وهي تسير على الطريق مع قطرات الشتاء، في الأغصان النابتة على فروع الشجر، وفي الطيور وهي تهجر أعشاشها بعدما حملت إليها القش وخيوط الصوف بمناقيرها لتتركها بعد ذلك

وترحل، أفكر في ألوان الشمس على الأشجار.. في هذا أفكر..

هـي تتكلم بذلك الصوت المتـزن وخليل واقف صامت كأنما استل لسانـه مـن حلقه،وعندما همت بالدخول إنطلـق لسانه بالكلام وقال لها:

– لا تذهبي هكذا بغير تحيةً أو سلام، كنت أود محادثتك والجلوس معك، بعدما بحثت لك كثيراً في السوق عن هدية مناسبة.. ولكنني لم أجد لك أجمل من هدية السيدة الزهراء عليها السلام . ومد يده بكيس ملون فيه... حجاب .

مدت يدها أخذته بهدوء وقالت:

– هذه أحسن هدية، سأذكرك بها دائماً.

وأطلقت ضحكةً ناعمة وبدا عليه السرور، ولعل قلب خليل أطل من عينيه هنيهةً كما يطل الطفل من حضن أمه، وهو واقف كالأبله لا يكاد يفقه شيئاً مما قالته. ثمّ حدَّث نفسه:

«تمتمت علا ما في ذهنك يا خليل.. أمر جميل»

– علا لماذا تهربين؟ وماذا تخفين عني؟

–لا أهرب كل ما في الأمر أنني مشغولة..

– أرجوكي حاولي أن تسمعي كلامي بأذن القلب

نهضت واقفة واستطردت:

– أرجوك دعني أذهب، لدي أعمال كثيرة ولابد من إنجازها..

– أرجوك اسمعيني، أتمنى أن تبقي إلى جانبي طول العمر لا أتخيل حياتي من دونك

نظرت إليه بدهشة.. تلعثمت:

- أنا... لم.. أنا..لم أفكر بذلك..

- والى متى ستبقين كذلك؟ لقد سرقت النوم من عيوني..

- خليل! أنا احترمك كصديق.. وأمامي وقت طويل في الجامعة.

- علا لماذا هذا الرفض؟ لا تدعيني أتعذب..

استغربت علا هذا الكلام، وتلعثمت مجدداً

- أنا..أنا.. مشغولة...

خليل يقول لها بحدة:

-أنتِ ماذا ماذا؟؟ ألا استحق منكِ أن تفكّري بي كزوج..

- لا شيء.. عليّ أن أذهب..

مضت عنه وخرجت مسرعةً، وسرعان ما اختفت عن ناظريه، وحمرة الخجل تعتلي وجنتيها. لقد صدقت ظنونها المتضاربة نحوه.. فنظراته التي كانت تلحقها تخفي وراءها الكثير.. هكذا إذاً.. كنت أظن... ولكن العلاقة معه تخطت ذلك...لابد من قطع هذه العلاقة.. لن ألتقي به بعد اليوم ..

انتفض خليل واقفاً.. وقد أرتبك كثيراً، طوى كتابه وأسرع في الخروج من المستشفى، وكأنَّه هاربٌ من نفسه، وراح يتساءل!!.

«ما بها علا؟ فكل ما تفعله هو الهروب دائماً!! فلماذا؟ وماذا فعلت لها أنا؟ يعود ويلوم نفسه ما الذي أفقدني السيطرة على نفسي؟ كان عليّ أن أنتبه أكثر من ذلك وأتريث!! كان يجب أن أختار الوقت المناسب، لا أعرف ماذا أفعل لها..

ركـب سيارته والدهشة تتملكه..ومضى بها نحو بيروت ليبيت ليلته عند أخيه سامي ويهيء بعض أغراضه لينطلق الى الدورة العسكرية.. مضـى الليل بطوله وصدح صـوت المئذنة ببزوغ الفجـر وقبل شروق الشمـس خرج خليـل متسحباً من البيـت قبل أن يشعر بـه أحد، وفي الصباح عندمـا دخل أخوه ليوقظه فلم يجده بحث عنه في كل مكان، اندهش للأمر فأيقظ زوجته وسألها:

–أين خليل؟

– إنه نائم

– ولكنني لم أجده

وقد بدأ التوتر يستولي عليه

– ربما خرج قليلاً إلى المسجد الآن يعود

مـرّ اليـوم ولم يعد، فلم يكن أمـام أخيه سامـي إلا أن يتوجه الى رفيقه محمد ويسألـه فهو الوحيد الذي يعرف أسراره بحث عنه حتى وجده وسأله:

– أين خليل يا محمد؟

– أرجو منك أن تهدأ ولا تقلق سيعود قريباً إنشاء الله إنه في دورة ثقافية..

– ولمـاذا لم يخبـر أحداً؟ والله لا يأتي البـلاء إلا منكم «يا حزب الله»، لـمَ لا تتركه بحاله يا سيـد محمد؟ ألا يكفينا مشاكل بسبببكم؟ أختـي وأخي في المعتقل وحتى الأمـس القريب كان أبي في المعتقل!! والعمـلاء لا يسمحون لأمي وأبي بالخروج مـن القرية!! ماذا تريدون

منّا أكثر من ذلك؟؟ لو حصل أي مشكلة أو مكروه له سوف ترى ماذا أفعل بك..

– توكل على الله لا تقلق سيعود قريباً بإذن الله، خليل يعرف جيداً طريقه ولم أحاول لا أنا ولا غيري أن نؤثر عليه.

ولكن هذا الكلام لم يطفئ نار الغضب في صدر سامي، وترك محمد وهو يقول له:

– الأيام عندكم شهور.

راح يتوعده بالويل والثبور والغضب يملأ كيانه من الخوف على أخيه فهو بمثابة الأمانة عنده..

وبعد غياب طويل عن البيت عاد خليل منهكاً، ودخل إلى البيت مسرعا حتى لا يراه أحد من الموجودين عند بيت أخيه، لحق به أخوه ضمه طويلاً وعاتبه كثيراً على غيابه، فأجابه خليل عن تساؤلاته بابتسامة خفيفة وكأنه يقول له «من اليوم وصاعداً لن تراني كثيراً»

– يا خليل إنتبه لمستقبلك يا أخي! إذا كنت لا تخاف على نفسك يجب أن تراعي ظروف أهلك في القرية ولا تتردد كثيراً الى المسجد...

فيقول خليل:

– مستقبلي في الجنوب مع المقاومة، وأنت تعلم قبل مجيئي إلى بيروت كان وضع أهلي صعباً والله يتكفل بهم.

وبعد نقاش طويل إنصرف الجميع للنوم.

غفت العيون وألقى خليل رأسه على الوسادة محاولاً أن يغفو ولكن

ما أن استقر رأسه على الوسادة وإذ بصوت علا يرن في أذنه:

«أين أنت يا خليل؟ ولماذا لم تأتِ لزيارتي؟ أنا بحاجة إلى وجودك بجانبي! لماذا تأخرت؟؟

جلس خليل يتمنى أن يكون هذا الصوت من داخل قلب «علا» وإنه حقاً يناديه، وأخذ يسأل حاله هل أتزوج منها وهي على سفورها؟؟!! سيبقى ذلك حجر العثرة في طريق زواجنا ،ويعود إلى دقات قلبه وهي ترقص فرحاً بذكر علا ، لكنَّه مع ذلك أحبَّها!! فهي زهرةً محفوفة بأشواك،!! وهو يحدث نفسه يا ترى هل تسمع دقات قلبي؟؟ هل تبادلني نفس الشعور؟ وتزداد دقات قلبه حنيناً.وأقسم في نفسه واعداً إياها حالما ينتهي من العمل الموكل إليه أن يتوجَّه لزيارتها..

وفعلاً في اليوم التالي كانت الساعة تشير الى الرابعة عصراً وقف خليل أمام مدخل المستشفى ينتظر خروج علا ، وفي ذهنه مصمم أن يبت معها موضوع الزواج، وقف الزمن برهةً عندما أطلت علا ، وهي تضع الحجاب على رأسها ، إنفرجت أساريره وتلألأت الفرحة على وجهه، وبعد السلام والكلام حاولت علا استيضاح غيابه لعله يفضي لها بشيء، وهي تقول له:

- لم تخبرني عن سبب غيابك وعدتني بأن تخبرني بعد عودتك
- أتمنى عليك أن تستجيبي لكل ما أطلبه منك ولو قليلاً.. ولا تكثري من الأسئلة ارجو أن تسمعيني.. لحظة من فضلك..

هي التي حاولت الهروب من تلك اللحظة أي «لحظة المواجهة» مع خليل فهي تعرف ما يدور في خلده من نظراته.. ارتجفت وابتلعت

ريقهـا.. وظهـر الذهول والدهشـة على وجهها وعلـت وجنيتها حمرة الخجـل!! فخليل بنظرها رجـل متدين والتدين يعنـي التخلف.. فهي تحـب الـزواج من رجـل منفتـح.. وهي مع تحـرر المـرأة ومساواتها بالرجل..

- خليل أنا ليس عندي متسع من الوقت..

ومضت مسرعةً.

شعـر بالمرار والأسى، فهو لم يكن يتوقـع منها هذا التصرف بعد كل هذا الغياب،حمل نار حبه في قلبه، وتوجه نحو تلال صافي..

اللقاء الجديد

بعد الإنتهاء من عرض يوم القدس في آخر يوم جمعة من شهر رمضان ١٩٩٣ ، وجد خليل نفسه وجهاً لوجه أمام علا ومحمد ومنال، أطرق برأسه دون أن يتفوه بكلمة، وبدا مضطرباً حائراً.. فقال له محمد:

- أهلا يا خليل أهلاً

- السلام عليكم..عفواً لم أنتبه جيداً يا محمد أين أنت؟ واقترب من علا يعتذر منها عن عدم اللقاء بها بسب إنشغاله، ودعاهم جميعاً إلى بيت أخيه للإفطار

لم يرد محمد ولا منال،فأجابته علا بتلعثم:

- لا لا شكراً لا نستطيع التأخر في بيروت عندي مناوبة في المستشفى.

عندها تقدم محمد ودعاه للذهاب معهم..

-خيراً إنشاء الله.. أعود في وقت لاحق وألتقي بكم ...

مساء يوم العيد كانت علا ذاهبة لزيارة منال استوقفها خليل وقال لها:

– علا أنا أعتذر عن تصرفي بالأمس.

صمتت علا برهة ثم أردفت:

– لا تكترث حصل خير، يهمني أن نبقى أصدقاء

هزّ خليل برأسه، فقالت له:

– اتفقنا، ودفعت إليه ببعض المحاضرات التي كانت قد استعارتها منه سابقاً. خطفها منها وكأنها رمت اليه كنزاً من السماء،ثم قال:

– علا انني أبحث عن صورة ترضي الله عز وجل وتقربني منك دون إثارة لأدنى شبهة.. اني لا أضغط عليك بشيء، أرجوكِ كفانا عذاب روحينا ولنرحم قلوبنا.

تسمّرت في مكانها بدهشةً ثم قالت:

– لعلك ترسم خططاً وأهدافاً لنفسك تختلف عن أهدافي ومنهجي في الحياة.

قاطعها وهو يحاول أن يخفي غضبه عنها:

–إفهميني أنا إنسان مباشر لا أستطيع أن أنمق الكلمات ولست من الذين، يتبعون أسلوب اللف والدوران، أرغب أن نؤسس حياة مشتركة معاً وأطمع أن تساعديني..

– أنت لا تعرف عني شيئاً كيف تطلب ذلك مني!! نحن أصدقاء نتحاور في السياسة نستفيد من بعضنا البعض، نتفق على أمور فكرية.. والأمر مجرد إعجاب بأفكار ومفاهيم قرأناها على الورق.

أصغى خليل صامتاً ثم استطرد وهو يدعوها الى الجلوس:

– أحياناً لا يستطيع الإنسان أن يعبّر عن نفسه، لكن إحساسه

وعقله قادران على الاختيار بهـدوء وتأنٍ.. صدقيني وجدتك الصورة الأخرى لذاتي ولن تستقر ذاتي ما لم تكوني الى جانبي

– نحـن نعـرف بعضنا من مـدة قصيـرة، ومـا زال كلّ منّا يجهل الآخر.. قالت هذا ثم صمتت وهو يطأطىء برأسه الى الأرض. فمضت تقول بحزم يشوبه بعض اللين:

– إنهـا محاولة جريئة منك فاجأتني بها، ربما أخطأت في التقييم فكّر جيداً، لعلك تسرعت.

تنهدّ حتى لا ينفذ صبره.

–أنا لست طائشاً ولا أخلط بين الواقع والوهم، هذا قرار فكرت به جيـداً فأمامي مشوار طويل وطويل جداً أحتـاج إلى امرأة مثلك تقف الى جانبي، وتسير معي في هذا الطريق، أنا يا علا أشعر بالحاجة الى الإستقـرار النفسي والعاطفي.. أكثر مـن أي وقت مضى.. أنا أريدك لي زوجة.. اذا كان لي مكان في قلبك فأرجو.. أن تفكري جيداً وهمس لها بحنان.. بيدك كل شيء يا علا أنا.. سأنتظرك طول العمر..

– الآن أستودعـك الله، فـلا ينبغي البقاء على هـذا الحال لوحدنا ياخليل.

وقف مشدوهاً، فجاء ضـرب بيديه على الحائط، ربت محمد على كتفه وقال:

– لا تحزن يا صديقي قليلاً من الصبر عليها.

– يا عزيزي أنا أحبها منذ اللحظة الاولى. حاولت التقرب منها بكل الوسائل، وكما ترى لا تهتم لمشاعري ولا تسمع أي كلمة بهذا الشأن.

- بالأمس كنتم بأحسن حال تتحدثان وتتناقشان وتتسامران.. ماذا حدث لكما؟

- لا يا عزيزي فهي تتحدث بكل شيء إلا موضوع الزواج..

ثم صمت طويلاً. فهزه محمد:

- خليل أين شردت؟ أنا هنا يا صديقي.

- إنها تأسرني تجذبني بهدوئها، وحديثها ورزانتها، كل شيء في شخصيتها يأسرني، كبرياؤها، شموخها، حياؤها، إحساسها المرهف، تسحرني بكآبتها، وحشمتها بوقارها وبإيمانها بكل شيء تسحرني، وتشدني إليها، ترغمني على الغوص والتأمل، لأكتشف سر جمال روحها الكبيرة والمعطاءة، وأنا معها يا محمد أشعر وكأنني في وسط المعركة.. لابد وأن أكسبها..

- أيها الشاعر العظيم ماذا جرى لك؟ أنا أخوك محمد ولست علا

- عفواً لم أقصد أن أزعجك ولكن أنت صديقي الوحيد الذي يمكن أن أبوح له بمكنونات القلب..

المحاولة الأخيرة

خليل وبعد أن إتخـذ قراره بالالتحاق بقافلة المجاهدين كان لا بدّ لـه أن يخضع لعـدة دورات عسكرية وثقافية تؤهّلـه للقيام بواجبه في توعية الناس من الملتزمين وغير الملتزمين..

كان يسـأل بجوّ من المزاح والمرح: في هـذا الوقت لو هجم علينا الذئـاب هل يستطيعون أن يقضوا علينـا ونحن مجتمعون!؟.. ولكنّا لو كان كل واحـد في مكان لكانت الذئاب قضت علينـا جميعاً واحداً تلو الآخـر.. (كما فعل العـدو الاسرائيلي..) وهكذا بالوحدة وبالإلتزام بأمر الولي الفقيه تستمر المقاومة وننتصر إنشاء الله..

واصطفـى روحه من حدود جسده ليكون كمـا أراد الله له أن يكون، وصار هدفه الوحيد العمـل بصفوف المقاومة الإسلامية.. كلما طوى صفحـةً من أيام عمره ضخ فؤاده حبـاً للجهاد وروحه تعيش مع الامام الحسيـن عليه السلام وقلبه ينبض بحب الحسيـن «ع» ويتزود العزم والقوة مـن تلك العلاقة مع السيدة زينب «ع»، ولسانه لا ينطق بغير ذكر الله، وقلبه يهفو إلى حيث دانت اقدام المجاهدين، تدوس دشم ومواقع العدو

حب ونار

الإسرائيلي ولم يعد كثير التردد الى المستشفى وانقضت الأيام الثقيلة ومرت الساعات ببطء شديد، وعلا لا تهتم بمشاعره ولا بحبه.

وعلا بالرغم من عدم تقبلها فكرة الزواج من مجاهد وحتى من مدرس للعلوم الدينية، كانت تشارك في تلك الدروس،وكانت أنشطتها الدينية لا تهدأ، ولا تستكين ولا تستسلم، وقد ساعدها حسّها الاجتماعي وثقافتها الواسعة وأصبحت تتربع في قلوب كل من عرفها من الأصدقاء، وهي متنقلة بين المستشفى وأصدقائها، بقيت مشردةً تبحث عن مكان لتسكن فيه بعدما اضطرتها الظروف القاهرة والمؤلمة التي تعيشها، (بعد وفاة خالتها)، إلى النزول الى بيروت،وفي أحد الأيام بينما هي تلهث مرتبكةً قلقةً ولا تدري عن ماذا تبحث.. بذلك اليوم من كانون الثاني حيث الغيوم تتلاحق في السماء، ودويّ الرعد يصمّ الآذان والأمطار والثلوج تنهمر بغزارة.. اندفعت علا، راكضة الى مدخل المبنى المقابل لها تحاول إخفاء رأسها بين يديها خشية المطر المتساقط يوقفها صوت:

- هل أنتِ هنا في بيروت يا علا؟ ولماذا تركضين؟

- اضطررت الى الركض بعد إنتهائي من الصلاة هنا في المسجد.. حتى لا أتأخر عن داوم العمل في المستشفى تلك وأشارت إلى مستشفي الساحل

- وأين تنزلين؟

حاولت علا إخفاء الحقيقة عنه وقالت له هناك في البيت المقابل، فنحن هنا غرباء في هذه المنطقة..

تبسم خليل

- لا بأس أنتِ هنا بين أهلك وأحبتك،«هنا أهل الكرم والجود» ..

وعيناه تلاحقانها وهي بدت مربكة.. تحاول إخفاء ذلك بحجة المطر، فقال لها خليل:

هنا تسكن أختي مريم «في منطقة المشرفية»، تعالي نأخذك معنا نحن ذاهبون الى بيروت الغربية.

صمتت علا برهة فقال خليل يمزاحها:

- إذا ما حصل لاسمح الله طوفانا في هذا الطقس الممطر يأخذك معه..

توافقه الرأي

- نعم يا أخي خليل وهل يوجد أكثر من ذلك طوفانا؟!!

أسرَّه الخبر وقال لها:

- خيراً.. قالها وقلبه يخفق وهو يجلس خلف مقود سيارته صامتاً،صدره يعلو وينزل فانتبهت إليه علا:

- هل هناك شيء يا خليل؟

- لاشيء..لاشيء.. وهو يحاول إخفاء إحساسه

-.. هل نسيت أننا إخوة!! هل ستذهب الى الجنوب في هذه الفترة؟

لم يجبها كررت السؤال فأجاب:

- سأغيب هذه المرة، حوالي الشهر.. أجابها وهو لا يعرف كيف يتخلص مما ينتابه من أحاسيس:

-وأنا سوف آخذ إجازة لمدة ثلاثة أيام من الجامعة والمستشفى للذهاب إلى القرية..

وعندمـا احسّت أنه يريد أن يفاتحهـا بموضوع الزواج، طلبت منه التوقف علـى عجل قبل وصولها الى المدخـل، فشعر خليل أنها تريد الهروب منه.

فغيّر خليل الكلام من أجل أن تبقى معه قليلاً:

– أنا خجلٌ منك لأني لم أتمكن من زيارتك والقيام بواجب التعزية بخالتك.. والوقوف الى جانبك في هذه الظروف.

رفعت علا رأسها.... وقالت وهي تتلعثم بالكلام:

– لا تقل هذا يا خليل

فسألها:

– ما بك أتشعرين بالتعب؟؟ أو بالبرد؟

سكت وكأنه يطوف بنفسه ثم قال:

– عجيب لقد خيل لي عندما التقيت بك أنك ستكونين سعيدة جداً،ولكن لم أكن أتوقع منك كل ذلك الجفاء.

قالت علا وكأنها تواسيه:

– الحب كالأرض التي نخلق عليها يمكن أن لا تكون وطناً لنا.

يبتلع خليل ريقه ثم يسألها:

–هل توافقين على الزواج منيّ؟

– لا مستحيل...

سـارت علا على الطريق وهي غارقة في شرودها ..، بما فعلته لم تكـن راضيـةً عن سلوكها....، تردد في نفسهـا: «آه لو أختفي من هذا العالم لكي أرتاح!!!»

قرعت البــاب ودخلت الى غرفتها دون أن تكلـم أحداً وهي تحدث نفسها وتلومها:

«لمــاذا كل هذه القســوة يا علا؟ الرجل لم يقدم لــك إلاّ كل خير، فقـد وقـف الى جانبك مـن بدء العمل وحتـى اليـوم،.. وكاد أن يمنع نسمـة الهواء إذا لمست الحجـاب، وهو يتمتع بكل مواصفات الرجولة فـي هذا الزمن الـرديء شهامة، صـدق، وإخلاص!!.. تبسمت أين تجدين عريساً مثله يا علا؟ لا غداً يكون شهيداً..أو جريحاً وقد بترت أجزاء من جسده.

وجلسـت الى طاولتها، ربما تسعفهـا شجاعتها بالبوح بسر قلبها، حملـت القلم فارتجف بيـن أناملها، إحساس جـارف يدفعها الى نثر همستهـا علـى الورق، لابـدّ وأن يعرف خليل خفاياهـا، ويفهم أن ما تحس به هو أمر بالغ التعقيد لا يتحدد بخفقة قلب، وإنما أشياء كثيرة تدور في خلدها لم تفضِ بها الى مخلوق..

الأخ خليل السلام عليكم ورحمة الله..

لا أقول لك إني باحثة عن زواج ودفء كما ترجوه كل فتاة في هذا العالم، فأنا منذ أن تفتحت عيناي على الدنيا والظلم يلاحقني، وأنا مشردة على أبواب الغربة، بعيدةً عن ديار الطفولة.. ونافورة الدم تعلو أمام نظري من صدر أبي، وقد أفرغ الجندي الإسرائيلي الرصاص في صدره ورأسه وأرداه قتيلاً..وألجمت الدهشة فم أمي النحيلة وسقطت ميتة.. لا زلت ذبيحة.. أتيت الى هنا وفي عيني دمعتان حائرتان مذهولتان، ونقمة تصرخ في صدري، تتفجر كلمّا

حب ونار

لمحت دماً.. أن هذا هو دم أبي.. لم يكن لي حلم سعيد بل قُتلت أحلامي ولا شيء ينسيني صوت ودماء أبي وهو يستغيث.. ومن يومها وأنا مشردة في أرض الغربة بين التهجير والقهر وفقدان الامل بأمن واستقرار..، ولولا رحمة الله سبحانه وتعالى لما بقيت على قيد الحياة.. بعد كل هذه الهموم لم أفكر في الزواج من رجل يحمل دمه على كفيه ويسير نحو الجنوب «لمقاتلة العدو الإسرائيلي..» لا أريد أن أبدأ عمري الجديد أرملة «يشفق عليها الناس».. ولم أخطط لحياتي يوماً أن أعيش ضمن سقف وأربعة جدران، وتعشّش في رأسي هموم الخبز والطعام.. ألا يكفيني ما أنا فيه، من حقي أن أعيش مرتاحة البال مطمئنة النفس مع رجل ينعم بالأمن والاستقرار لامع رجل العدو يطارده بكل مكان وزمان، وهو يطارد هذا العدو ويذهب وراءه الى أقصى الجنوب بل الى فلسطين فأنت طير مهاجر..، ومن يقدم حياته ودنياه فداءاً لمبادئه يستحق أن تكون له زوجة صالحة مؤمنة طاهرةً تضعه في عيونها ولن أستطيع أن أكون تلك الزوجة، مع كل احترامي وتقديري لعملك في المقاومة.

لـك كل التحيـات الخالصة، مع الدعاء بالتوفيـق من الله الحكيم العليم .....علا

وضعت القلم ونامت.

فزعـت عندما قرعت زميلتهـا الباب وأيقظتها مـن غفلتها.ثم ما لبثت أن وجدت نفسها في الشارع أمام الباص المتوجه نحو الجنوب، فركبتـه ثم التفتت ناحية الشـارع المكتظّ..، جلسـت شاردة التفكير

ولـم تدرِ إلا والباصـ توقف أمام الشارع المؤدّي إلى منزل صديقتها منـال، نزلت مسرعةً، لابدّ وأن تستشيرها بالأمر، وتبثُّ همومها الى صاحبتها، صعدت السلم طرقت باب بيت منال.. لم تجدها

وفـي اليوم التالي ذهبـت الى المستشفى حيث تعمـل منال، وعلى أمـل اللقاء بخليل وتسليمه الرسالة التي قضـت الليل في كتابتها فلم تجده وعندما إلتقت بمنال سألتها:

–أين كنتِ البارحة؟ قصدتك ولم أجدك في البيت.

– أهلاً يا علا!أخي محمد أخبرني بذلك لماذا لم تنتظريني؟

– كنت مستعجلة.

– حقاً كنتِ مستعجلة؟ أم بسب وجود خليل؟

– لا..لا يامنال. تعالي نجلس هناك بعيداً عن الضوضاء.

– هل قررت الزواج من خليل؟

– اسمعي يا منال لن أتزوج من خليل ما دام في حزب الله.

– يا الله لماذا هذا الهجوم العنيف علينا..!!

– لا ليسـ هجوماً، بل هذا قراري، ومـادام يعجبك كثيراً، تزوّجيه أنتِ.

تضحك منال:

– ابتعدي عنه، والكثير من الفتيات يتزوجنه.

رمت إليها بالرسالة وطلبت منها إيصالها الى خليل

– منـال غداً نتكلم بهذا الموضوع لقد جـاء الدكتور وسأذهب إلى سمـاع المحاضرة وأرجـو أن لا تنسي موعدنا غـداً الساعة السادسة

مساءً، كما أرجو أن تذكِّري الزميلات بذلك «لأنه سيكون بيننا شخصية مهمة وستلقي محاضرة رائعة بعد الدعاء»

ضحكت علا وأردفت:

– ولكن لم تسمعيها كيف جزمت بأنَّها رائعة؟

تبسمت منال ولم تتكلَّم بشيء فأكملت علا:

– لا يمكنني غداً الحضور لأنه عندي دوام ليلاً.

ومضت في طريق العودة إلى بيروت.

بعد أن إستلم خليل رسالتها وقرأها عدة مرت، كان قلبه يتعذب لتلك الكلمات الحزينة التي خطتها الدموع، فوجد نفسه يكتب اليها..

وعندما إلتقى بها أعطاها الرسالة التي كتبها رداً على رسالتها.

بينما انفردت علا بنفسها والرسالة بين يديها المرتعشتين يملؤها الفضول.. لمعرفة ما فيها، والقلق بادٍ في عينيها...ماذا كتبت يا خليل؟

بدأت تقرأ الرسالة.

«أغمضت عيني على هذه الكلمات الحزينة، وفي صدري طوفان جارف من العاطفة

.. كنت أبحث منذ سنين طويلة عنكِ..؟ أيها الطائر المهاجر وأنتِ تحومين فوق الديار تبحثين عن مأوى، سيكون مأواكِ في قلبي بين ضلوعي، فلا تبتئسي، سأكون لك الأمان والدفء..

حاولي أن تنسي الأحـزان الماضية ودعيني أمسح دموعك، وأتصدى لهذا العدو الذي يسرق منّا الحاضر والمستقبل وحتى الماضي.. تعالي الى هذا الطريق طريق الجهاد والتضحية نسير فيه معاً، ننثر الورد والرياحين على كل القلوب العطشى...، حتى يصبح طريقاً معبداً بالأعمال الصالحة، أشمّر عن ساعدي وأشق درب الخوف بإخلاص وعطاء..أحترم فيكِ هذا الإيمان الرقراق الذي يتفجر عطاءً وتضحية.. وآخذك الى حياتي العريضة،.. أنت تستطيعين أن تفهميني أكثر من أي فتاة أخرى، إني لأحلم بذلك اليوم الذي نجتمع فيه تحت سقف واحد نخطط ونعمل.. ثم نساهم في بناء الأمنيات التي نحلم بها، حياتنا ليست محطة للخلود الدائم إنما مرحلة يقطعها طير مهاجر يهبط لبرهة ثم يطير الـى عالم الآخـرة حيث حياة الخلد.. كما تعلمنا من الشهداء الابرار»

خليل

وعندمـا إنتهت من قراءة الرسالة جلست وضعتها جانباً،وسرحت في تفكير عميق:

«لا أريـد هـذا الحب الذي سوف يتبعه القهـر والعذاب ألا يكفيني ما أنا فيه».

تمر الأيام ولم ترد علا على الرسالة، ومع كل تنهيدة وحسرة يحلّ صـدى صوتها ضيفاً ثقيلاً في قلبه، يناوشه الشوق لحظة قدوم الليل

حب ونار

المزين بالقمر والنجـوم، وشهب الرصاص، من خلف التلال البعيدة والجبال،يكتـم أنفاسـه بيـن ضلوعـه، يمنعه من الهمسـ، يختلي به تحت صخرة في مواقع المرابطة قرب مواقع العدو، في قرى الجنوب والبقـاع، يتحسس حرارة طيفهـا وينصت الى صـدى صوتها ليحمي ثغور الوطن، ويمنع العدو من أن يزرع الرعب في قلوب الاطفال، وعلى وقع الخطوات الإجبارية، سمع نداء

«ألا من ناصر ينصرنا»

فـي أمسية ضبابية تم عقد قران منال علـى محمد، واجتمع شمل الأصدقـاء وأمضـى الجميع هذه الليلـة يتسامـرون ويتجاذبون شتى الأحاديـث، بينما انسحب خليل وعـلا الى خارج الدار، وبعد أن جلسا في السيارة سألها:

– هل تحبين أن نذهب إلى مكان ما تحبينه؟

أجابته وهي مطرقة الى الارض..

– لا... أريد نهايةً لطريقنا هذه ..

بعد قليل يوقف خليل السيارة على شاطىء البحر.. يتأمل ضوء القمر وهو يلمع على صفحات المياه، ينير وجهها، يرمقها بحنانه ويبدأ المناجاة:

«هـا أنـا أراك من جديد مـا اصعب الوصول إلى قلبـك وما أسهل الوقـوع في حبـك، أدعوك إلى طـي صفحة الماضـي الملونة بنزيف الـدم، وبالـوان العيون الخائفـة، أن تسيري معي تحـت الشمس، وأن تتركـي سواد الليل، وأنتِ تبحثين عن مـأوى، قلبي هو المأوى، ينظر

إليهـا أرجـوكِ لا تستسلمـي بل كونـي كأم أرسلت برجالهـا ليرابطوا على حـدود الاسلام وكالأرض التي القت بصلابة صخورها في قلوب أبنائها، فإمتزجت وأولدت مقاومة»

تنظر علا إليه منزلاً ذقنه على صدره وتقول له متصنِّعة الجدية:

– خليل أحس بالبرد، يجب أن نعود

– يخلع خليل المعطف ويضعه على كتفيها.. تتنهد:

– لأول مرة أشعر بالأمان، فمعك يتدفق في أعماقي إحساس غريب افتقدته منذ سنين طويلة، وهذه أسعد لحظات حياتي يا خليل

– دعيني أتأملك..

قال ذلك ورمقها بطرفه ثم أكمل:

– الطقس بارد وجميل.. إنه رائع يا علا...أعاهدك على الإخلاص ولن أتردد لحظة في إسعادك

تقول له وهي تصب الشاي من الإبريق الحافظ للحرارة:

– أعانك الله ياعزيزي، على البرد والصقيع في الجبال.. يقاطعها

– وجـودك الـى جانبي يعوضني عن كل شـيء.. لا تفكري في هذا الأمر كثيراً، أرجوك دعي الأمر الى الله عز وجلا، إذا أراد أمراً فإنما يقـول له كن فيكون... الموت والحياة كلها بيد الله عزوجل هيا يا علا ابتسمي لا تدعي أمراً كهذا يعكر صفونا..

كان رذاذ المطر قد بدأ يتساقط على زجاج السيارة وكانت نفحات من الهواء البارد تتسلل عبر فتحات النوافذ.. فنهضت علا واقفة

– تعجز الكلمات عن الشكر لك بفضل جهودك ياخليل وتشجيعك لـي تابعت جامعتي، وبنشـاط وتفوق حصلت علـى الشهادة.. وسوف أنتهي من تحضير رسالة الماجستير في العلوم السياسية.

قال وهو يبتسم..

– لقـد مضـى علـى تعارفنا دهراً طويـلا ولم نحسـم موضوع زواجنـا، عـلا أنـت نعمـة وهبهـا الله لـي، ثمـة عينـان وديعتان تبعثـان لـي شعاعـاً مـن الاطمئنان تشدّ مـن عزيمتـي وهمتي..، أريـدكِ زوجـةً تسيري معي فـي الطريـق وتكون صابـرة، وبطلة فدائيـة تستطيع أن تقـدم نفسها من أجـل مبادئها، تدفع زوجها للمقاومـة..

وجـاء صوتهـا مدوياً وألقـت صاعقتها عليـه صرخةً تعانـق يأساً مبرحـاً يتغلغل داخل أحشائهـا لم تستطع نسورهـا أن تقاوم الخوف والظلام..

– يا خليل الخوف أقوى وأشد بطشاً على النفس من الحب وقد أخذ الخوف من كياني وعقلي نصيباً، وهو يدوس على مشاعري ويمزق العواطف دون رحمة، لا يا خليل لن تربطني بك بعد اليوم أي علاقة، لن أعيش حتى أترقب عودتك محمولاً على الأكتاف شهيداً، ولن أكون زوجةً مفجوعة.. لا لن أتزوج منك وأنت على هذا الطريق.. إنسان وضع على كفه الأيمان سلاحاً وعلى الكف الآخر دمه. أنا أعرف أنك تتمنى أن نتزوج يا خليل ولكن يجب أن تعرف

ان الحب وحده لا يكفي وأنا لا أفهمك كنت أظن أنني أساوي عندك الكثير وإذا أنت كالمقامر كلما إزدادت خسارته كلما إزداد تماديه في اللعب.

- نعم يـا علا كلما إزداد عذابي تماديت فـي الاصرار على القيام بواجبـي الدينـي والوطني، دعي خفقـات قلبك تتجـاوب مع خفقات قلبي

نظـرت إليـه بعينين حزينتين ورمـوش طويلة تخفي الالـّم والخوف، وكأنها تقول له إني أريدك أكثر مما تريدني ولكن أترك هذا الطريق الذي تسير عليه، وأجهشت بالبكاء وهي تقول:

- ظننت إنك تعوضني عن عذابي عندما التقينا وأنت وحدك الذي أعطيته دون أن أسأله، لا أستطيع،إنتظر تعال معي لنحيا بعيداً عن الموت.

سكتت وفي عينيها نظرات قاسية يملؤها اللوم والعتاب...

شـرد خليـل ببصره هنا وهناك يرمق المـكان بنظرات وادعة وكان الشاطـىء هادئاً والسمـاء تسبّح بارئهـا والطيور تحلّق في علوّهـا..وقـال لهـا:

- هناك رسالـة في هذه الحياة بل قيود، حبرها الدم القاني، وطريقهـا نزهةً علـى الحدود مـع فلسطين تحت ظـل شجرة لوز وهي تحمل أزهاراً بيضـاء صغيرة هناك يكون للإحتفال طعم...، كنـت أتمنـى أن تكوني معـي ولكـن الأمـر بيـد الله يـا عزيزتـي

أطرقت حزينة ثم ذرفت دمعها، فاخرج من جيبه منديلاً يجفف دمعها.

- لماذا تبكين؟

- لا أحتمل فراقك يا خليل أترك هذا الطريق وتعال نحيا في السلام والأمان.

- لم أفقد الأمل بكِ أجدك قريبةً مني، لم يكن في نيتي أن أتخلى عنكِ إلاَّ رغماً عني فأنتِ خيرتيني بين الحب والنار، بين العشق والمعشوق، لا أزال أبحث عن أحد كي يفهمني ويقبلني كما أنا ما دامت الحواجز منصوبة على دربنا تخطف حلمنا وتغتال مستقبلنا بعدما سرقت ماضينا المتاخم لجرح فلسطين لن أختار إلا درب المقاومة.

- لا يا خليل هذه الخطوات التي سرنا بها على طريق السعادة في لحظة عواطف متعبة عشناها كانت مناجاة وحيرة تائهة وهلوسات مجنونة، ولهفة شريرة ضلَّت الطريق، وكل واحد فينا إختار طريقه.

- ربما تفهمني البندقية أكثر منكِ وخلافاً لرغبتي سوف أرحل وأنا أرى حبي يقفل عائداً من حيث عبر...، فالزوجة الصالحة تشارك زوجها أفكاره وإحساسه

.. وقد نفد الكلام، وجفت المدامع، وغرقت العيون في الأحزان.

فاجأتهما زخات من المطر الغزير، بعد رسائل الرذاذ العذبة. لوّحت بذراعها مودعةً.

وبقــي خليل وحيداً على شاطىء الرمــال المتحرك بعدما إكتشف أن قلبها يدق لغير البندقية وهو المتيقن باليقين الراسخ الذي لا يقبل الشك بأن الحب الحقيقي هو الله، وحب البندقية من حب الله.

جلــس خليل يتأمل النجــوم التي تحاول أن تزيــل بعضاً من وحشة تلــك الليلة طال الليل وكأن الصبــح تاه، والشمس عشقت المغيب حباً لانبض فيه.

حب ونار

الصفحة الجديدة

وقف خليل يتأمل السماء من شرفة غرفة النوم، وروحه تسرح مع نسيم الفجر وقلبه أصبح مثل تلك القمم والجبال التي غطتها لثلوج ....وكإنه يقول لها انهضي ماذا سيحدث.. لا ينفع هذه الأيام النوم تحت الثلوج انهضي.. تعرفين إنني نخلة من فلسطين تتعذب بنار الاحتلال.. بقيود الدم.. التي تعلو جسر القلب المتعب.. إنهضي واهمسي في الفجر.. الليلة لن يأتينا قمر السماء.. إفعلي شيئاً يا سنبلة الوجد.. ارسميني طيراً يبحث عن ساقيةً لا يتوقف فيها الماء..انهضي ارسمي طيراً أضيئي فجراً.. حدثيني عن الفراشة التي غرقت على أطراف الثوب بدماء.. حدثيني هل ينمو العشب على ضفاف الروح.. انهضي وحدثيني عن أحلام تشرق عند شبابيك قرى الجنوب.. من أجل طيرٍ باك في ظلمة هذا الليل القابع.. أطلقي همسك أشعلي حبكّ..يا ذا الوجه الممعن في براءة الطفولة وبمياه الطهر.. هذا العمر فانٍ.. لا تقولي لا أستطيع بل قولي وداعاً لحزن المستريح وسط القلب..

حب ونار

ماذا سيحدث العمر فانِ..انهضي حدثيني عن دبابة احترقت بعيون الشباب...قبل أن تنسفها تلك العبوة التي أرجعتها قطعاً الى فلسطين المحتلة.

كان على خليل الخيار بين الحب والنار، بين أن يستسلم لقدره مرةً جديدة ويترك حبَّه الى النار.

حاول فتح صفحةً جديدة في حياته يمسح منها سنوات الحب متجاهلاً تمرد القلب عن سابق تصور وتصميم،حاملاً حقيبته التي لا تزال تحتفظ ببقايا أسرار حبه كما تحتفظ بكتاب الله..

يشتعل في قلبه كالنيران في الهشيم بين أن يترك البندقية وهو يتساءل هل يرميها؟ ويرمي معها أهله ووطنه في أتون نار الإحتلال؟!!

.. وإنغمس خليل في العمل وهموم الحياة، وبين الدورات والعمل الإجتماعي، وفي أمسية باردة ولحن المطر يشجي قلباً يخفق في حنايا خليل، وقف أمام النافذة ينتظر أن يختفى القمر وعندما غاب ضوءه أحسّ أن الدنيا تضيق به.. جلس على مكتبه يتأمل خواطره تعوّذ بالله من الشيطان الرجيم..

- أنا أريد زوجتي قوية، صلبة شامخة، بطلة.

قام واختار كما أراد.... ففي صباح أحد أيام شباط المكلل بانتصار الثورة والدم كان على البطل أن يذهب لزيارة أحد جرحى المقاومة، وتكون هناك فتاة تقف تحت شجرة الزيتون التي تزين مدخل دارها تتأمل السماء وتبحث عن مقاوم أو استشهادي مزنر بالبارود الممزوج

بعطر الياسمين، على بعد خطوة واحدة من قلبه، ليكتشف خليل بأن كلام الله عز وجل يعلو ولا يعلى عليه

﴿.. **ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة..**﴾ آية ٢٢١ سورة البقرة

ولكن ما كان يشغله أكثر، فقلبه جمرات حامية تتوقد على بعضها منذ فرق الاحتلال بينه وبين أهله فلا يكل ولا يمل من رفع يده بالدعاء لحفظهم تماماً مثلما يدعو لحفظ سيد المقاومة ومجاهديها.

وجاء الوعد الصادق، وأسرت المقاومة الجنديين...

وبدأت نبال الحرب ترشق المدن والقرى بالنار والدمار على امتداد الوطن، والموت يتربص أمام كل دار وعند كل منعطف وضاع الكلام عن فلسفة الموت والحياة، وشرع خليل يقدم مقومات الصمود للنازحين من الجنوب بعدما احيطوا بحصار النار والطائرات المعادية. وينبري الى طهو الطعام.. إن إلتزامه بتنفيذ أي مهمة توكل إليه ينبع من إيمانه العميق بوجوب العمل بالتكليف والطاعة لأنه يعتبرها أساساً لكل نجاح وتعبر عن الايمان والإخلاص والتفاني.. مضت الأيام ككل الايام وخليل يقوم بواجبه، وكان حزن ما يلون جفونه، وفي أعماق قلبه حسرةً لأنه بعيد عن خطوط المواجهة، ولكن شعوره بالفخر بأن الله منّ عليه بالمساهمة ولو بجزء يسير في تخفيف آلام الناس وفي مسيرة المقاومة، وهذا ما كان يواسي خليل في هيمان قلبه، ليسهر في الليل والنهار على خدمة النازحين بين تأمين الطعام والنوم والراحة لهم، وبين زيارة عوائل الشهداء،

حب ونار

ينشغل خليل بالصلاة والدعاء للمجاهدين ويسأل الله أن يرزقه الشهادة على يد عدو الله في المواقع الأمامية حتى يواسي سيده ومولاه الامام الحسين «ع» ويبقى جسده بدون غسل وتكفين.. وإن كان من نهاية للعمر أن تكون بالشهادة، ويبكي كالطفل الذي منع من حضن أمه لأنَّ عمله بهذه الفترة كان في الجانب الاجتماعي ببيروت «الضاحية الجنوبية».

يعود خليل إلى عمله اليومي القديم، يقوم على خدمة المجاهدين، يتربص بجنود العدو، يقضّ مضجعهم ويفرغ رصاصاته في صدورهم.

يعود على الشاطىء الرملي بين الفينة والفينة يفتش عنها على الرغم من معرفته المسبقة بأنها لن تغير رأيها، ولكن نار الحب تؤجج العواطف وتلهب القلب.

فبعد التحرير تحقق التحرير الحقيقي للأرض والإنسان في أيار من العام ٢٠٠٠، وبعد أن شاهد خليل اليوم الذي حلم به طويلاً، وهو الإندحار المهين للعدو الصهيوني وعملائه، وعادت له روحه تحيا بالخضرة والماء على أعتاب قريته التي جعلها الله ثغراً من ثغور المسلمين وقلعة من قلاعه سجد لله حمداً وشكراً على نعمائه، بعد غربةٍ وأعاده إلى قريته.

وبينما كان خليل واقفاً على مدخل القرية بين الأهل والأحبة والجميع مسترسلون في تعبيرهم الممزوج بنشوة الفرح والاعتزاز بالنصر، تسارعت نبضات قلبه خوفاً بأن يكون قد حرم نيل الشهادة

وتمنـى لو انه عمدّ هذا النصر بدمه، وهو يقبّل حبات التراب المعطر بعطـر الـورود والزيزفون، وبالدحنون الاحمر الملـون بلون الدم شّم ترابهـا فإستراحـت نفسه،بعدمـا إنتهت رحلـة المعاناة التـي ألقت بظلالهـا الثقيلـة عليه وعلى أهله لسنوات، وتمـت الفرحة بلمّ الشمل وبقـي خليل الساهر ليلاً في غمار الدعاء ومناجاة الله، والصائم عن الدنيـا إلا ما كان لله، وهو الـزوج والأخ والصديق لزوجته، يضع كفها بكفـه ليسيرا معاً تحت ضوء القمر، والأب العطوف على بناته الثلاثة فيعطيهم أكثـر ما يعطي أب لأبنائه وهم يملـؤون حياته لعباً وضحكاً وسعـادة، وعلى رغم من صغر سنهم يذهب بهم إلى المقام، يحدثهم عـن المقاومـة والشهـادة، ويأخذ على عاتقـه تنشئـة وتربية الجيل الجديد بالعمل الكشفي إلى جانب عمله.

وهـو الذي عـرف بأخلاقه وإيمانـه يحاكي من عـاداه، ويزور من قاطعـه، ويسـأل عمـن آذاه ففرض بذلك احترامه فـي نفوس كل من عرفـه، يخدم أهله في الليل والنهـار دون كلل أو ملل، يربط على ثغور الوطـن، يلبي النداء في الثاني عشر من شهر تموز ٢٠٠٦ يسعى لزرع البسمة في القلوب وينفذ كلام أمينه العام.

في ليلة الثالث عشر من شهر تموز، وضبت له زوجته أمتعته، وودع خليل أهله واطفاله وزوجته

- هيـا يـا عزيزتـي انهضـي فـلا تعودين الـى البيت حتـى أرسل وراءك

فأجابته زوجته والقلق بادٍ على وجهها:

– عندي هاجس يحدثني بأنك لن تعود ياخليل!!

يربت على كتفها وهو يفتعل ابتسامة يقف ويشدها من ذراعها هاتفاً

– لا تخافي يا حبيبتي

تشبثت بذراعه كأنها غريقةً تستغيث فيقوي خليل من عزيمتها:

– لم أعهدك هكذا من قبل؟!! ما الذي يدفعك الى ذلك؟!!

– خليل أبقِ قليلا.. أخشى أن لا..

يغمرها بين ذراعيه ويقول بحنو:

– مـا بـكِ؟ وكأنها أول مرة أذهب بها بهكـذا رحلة لم أتعوّد عليك ضعيفةً هكذا.

– إنه إحساس بالفراق الأبدي.. أنني قلقة جداً وقلبي..

– لا تخافـي لـن تطول أيام الحرب، وكل ما فـي الأمر أنني لا أريد للأطفال أن يرتعبوا

وتطول أيام الحرب ثلاثة وثلاثين يوماً.

مع خيوط كل فجر جديد ينتظره أطفاله على حافة الطريق والشوق والحنيـن أفقدهم الصبر يلوحون بأيديهم الصغيرة والناعمة يبعثون برسائل حبهم وشوقهم مع غروب كل شمس لعلها تحمل لهم في صباح اليوم التالي جواباً.

وفـي الليلة الثانية من آب ٢٠٠٦ ناموا علـى أمل أن إشراقة شمس الصبـاح يـوم الاربعاء الثاني مـن آب تحمل لهم على خيـوط أشعتها نسمـة عطف وحنـان من والدهـم، واستيقظـت إبنة الأربـع سنوات قبـل شروق الشمـس وجلست تتحدث مع والدهـا وتخبره عن الخوف

والرعــب الذي مــلأ قلبها وتطلب منــه أن يعيدها الــى قريتها لتبقى بجانبه.. وتتوالــى الاخبار عن الاشتباكات العنيفــة التي تدور رحاها فــي محيبيب وتبث شاشات التلفاز خبر التحام المجاهدين مع جنود العدو على بعد أمتار على أرض قرية محيبيب

في ساعة من ساعات الظهيرة وبعد طول تجوال بين محاور الجنوب والبقــاع الغربــي، نفسٌ هائمة في رحاب الله تبحــث سواء السبيل في خــط يهدي للتي هي أقــوم... وروح توّاقة للجهاد فــي سبيله لاترضى بغيــر الشهادة هدفاً والجنة منزلاً.. وصدرٌ ضاق ذرعاً بالحياة الدنيا تسربــت البسمة من جديد الــى الشفاه العطشى، وكانــت السماء قد بدأت تفك الحداد بأول خيوط الفجر، عندما هبط الضباب على قرية محيبيــب وحجب الرؤيــة.. وهبطت معها السكينة وقــام خليل يصلي وكأنه يصلي للمرة الاولى

(إلهي ما عبدتك.. خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك) وهو يذكر مصائب أهل البيت عليهم السلام ولسانه يلهج بالحمد والشكر، وبين اللحظةواللحظة يتحسس قبضة البندقية، ويقــول لها أريدك أن تزغردي، تغني تصدحي بصوتك برصاصاتك، ليصــل ذلك الصوت الى عقيلة بني هاشم الى السيدة زينب عليها السلام ليرتاح قلبها ويطمئن بأن أصحاب الحسين عليه السلام مازلوا على العهد

وفجــأةً إنقطــع صمت الليل، وجعل خليل جنــود العدو في مواقعهم يلاقون الموت الأحمر من قذائفه ورصاصاته المتساقطة فوق رؤوسهم كحجارة من سجيل، وإشتدت ضراوة المعركة

حب ونار

ووصل احتدامها الى ذروته وأصبحت المواجهات على أمتار قليلة، وسقط عدد من جنود العدو بين قتيل وجريح.. وخليل يبتسم والنور يشع من وجهه مثل شعاع الشمس صفاءً وطهراً، غدرته قذائف المركافا من المواقع الاحتلال الخلفية والقريبة من الحدود اللبنانية، وقطعت أوصاله كعلي الأكبر «ع»..إلهي وربي رحماك رحماك فأنا إشتقتُ إليك وهمست شفتاه بالشهادتين، فتح عينه ونظر نظرةً أخيرة قبل أن يغمضها ثانيةً.. حضن بندقيته بين ذراعيه وقال لها أرجوكِ زغردي.. وكانت يداه تضمها الى صدره بعطف وحنان، والدماء تسيل من كل أطرافه، نظر الى الارض وإذا بها مزيجٌ من ألوان لوحةٍ زيتية رسام أبدع في جمالها، ورأى في البندقية وجه زوجته، أما وجه علا فقد وجده منتشراً على أزاهير الأرض التي قبلته أخيراً ولكن أشلاءً ودماءً.

تنساب الروح الى خالقها في تلك الساعة من شمس الظهيرة باليوم الثاني من آب ليزيدها لمعاناً إلى لمعانها، الدم الأحمر القاني خمسة عشر يوماً يسكب جسده الطاهر عطراً وطيباً ورياحين، خمسة عشر يوماً ورائحة الياسمين والعنبر وأريجها، تملاء سماء محيبيب، وهي تردد محيبيب البسي ثوبك المزدان بدماء الشهيد واستقبلي إبنك البار، وأغمضي له عينيه البراقتين، إمسحي عن وجنتيه الناعمتين احمرار الشباب، ها هو يعود محمولاً على الأكف.

ارتحل موصياً بأخذ الثأر للإمام الحسين عليه السلام من الصهاينة..

معتذراً من أبيه وبناته ومحبيه..

مذكراً إياهم أن الشوق والحنان للحسين عليه السلام.. أكبر من حنانهما.

وحدها الحقول تعرف أنينه الساكت..

ترافقه ستائر الليل عند مشارف بلدته..

وهو يحرس هدأة الصبح من ذئاب الليل وأفاعيه السامة..

وحده الغروب يعرف حزنه ولهيب نيرانه..

فهو تربّى على تراب أبي ذر الغفاري رحمه الله..

وفهم الاسلام عملاً وقولاً وفعلاً..

الفهرس

خليل ومحيبيب ٧
الرحيل ٢١
اللقاء ٢٩
عندما يحين موعد الحب ٣٥
الإرادة المعاكسة ٣٩
اللقاء الجديد ٤٧
المحاولة الأخيرة ٥١
الصفحة الجديدة ٦٧